


المجموعة المغاربية للدراسات التاريخية
والحضارات المقارنة

# الأقلية الإسلامية في صقلية
## بين الاندماج والصدام وصراع الهوية
## (484 -591 هـ / 1091 - 1194م)
## مساهمة في دراسة تاريخ الأقليات

د. إبراهيم القادري بوتشيش

سلسلة دراسات وأبحاث
36
2016

Scanned with CamScanner

الأقلية الإسلامية في صقلية

بين الاندماج والصدام وصراع الهوية

(484-591 هـ / 1091-1194م) مساهمة في دراسة تاريخ الأقليات

للدكتور إبراهيم القادري بوتشيش



رقم الإيداع القانوني : 2016MO0049

ردمك : 978-9981-933-51-4

الطبع : مكناس برانت شوب

الهاتف : 05 35 45 56 22

الطبعة الأولى 2016

الناشر: كلية الآداب و العلوم الانسانية مكناس

## مقدمـــــــــــــة

يرجع ارتباطي بتاريخ صقلية إلى مرحلة الدراسات الجامعية المعمقة حين أنجزت آنذاك بحثا حول الفتح العربي لصقلية. ومنذئذ خرج الموضوع من دائرة اهتماماتي، إلى أن شاركت في المؤتمر العشرين للمستعربين بجامعة باليرمو Palermo سنة 2002، فأحسست بعد زيارتي للمعالم الأثرية لهذه المدينة أن البصمات الإسلامية لا تزال منغرسة في وجدان التاريخ الصقلي، وأن المسلمين الذين حكموها ردحا طويلا من الزمن يربو على القرنين والنصف، وإن كانوا قد انهزموا عسكريا، فإنهم انتصروا حضاريا. ومنذ ذلك الوقت تكونت لديّ فكرة تأليف كتاب يتناول بعض الصفحات المطوية من تاريخ صقلية. وزادت زياراتي المتكررة لجامعة باليرمو، وتشجيع بعض الأصدقاء لي، خاصة المستعرب الإيطالي الصديق البروفيسور "أنطونينو بلييتري" Antonino Pilletteri والبروفيسورة سلمى الجيوسي على المضي قدما لإنجاز هذا الوعد الذي قطعته على نفسي.

وعندما تأملت المنجز في الدراسات العربية حول تاريخ صقلية، وجدت دراسات محترمة قد ألمت بتاريخها أو آدابها إلماما واسعا، إلا أنها جاءت في سياق تاريخ عام يغطي قرونا عديدة تبدأ من الفتح الإسلامي لهذا البلد في 17 من شهر يونيه 827 م /212 هـ على يد القاضي الشهير أسد بن الفرات، وتستمر إلى نهاية الحكم العربي سنة 591 هـ/ 1194م مع بعض الاستثناءات. وفي فضاء هذا الحيز الزمني الواسع تمت معالجة مواضيع متنوعة غلب عليها الجانب السياسي والعسكري، وإن لم تخل من مواضيع حضارية طريفة. وبدا لي بعد الفحص والرصد، وانطلاقا من اهتمامي المتواصل بالهامش والمهمش والمنسي في التاريخ، أن ثمة حلقات لا يزال يلفها الغموض رغم ما كتب حولها، ويتعلق الأمر بالأقلية الإسلامية التي تحولت بعد نهاية الحكم الإسلامي في صقلية من موقع الحاكم إلى موقع المحكوم، وعاشت في مناخ طرأت عليه متغيرات جديدة جراء تغير معادلات موازين القوى في العالم المتوسطي، وإعادة هيكلة الاقتصاد الصقلي، وبروز معالم مجتمع جديد يختلف عن المجتمع الذي ألفته وعايشته، وهو ما أسفر عن تحولات عميقة في أوضاعها الاقتصادية والاجتماعية، وفي هويتها التي تعرضت لمحاولات الطمس والتدمير البطيئ، وشخصيتها التي أصبحت تتميز بالازدواجية، بعد أن صارت عاجزة عن التعبير عن هويتها، وعن مقوماتها الثقافية وقيمها الاجتماعية. كما تعرضت

نفسيتها لرجّة قوية نتيجة شعورها بالغربــة والقلــق مــن المــصير المجهول، رغم اندماجها ومساهمتها في تنميــة المجتمــع الــصقلي الجديد.

ورغم خطورة هذه التحولات التي طالت جسد الإنسان المــسلم في صقلية ومشاعره وهويته وحياته اليومية، فإن المصادر العربية لم تكشف عنها إلا بكيفية شاحبة، فإذا استثنينا رحلة ابن جبير التي تجسد نصا اجتماعيا في غاية الأهمية، وتقريرا حيا يقــوم علــى المــشاهدة والعيان، فإن معظم المصادر التاريخية المعاصرة للحقبــة موضــوع الدراسة قد طواها الزمن مثل كتاب "تاريخ صقلية" لابن القطاع العالم اللغوي الصقلي، فضلا عن كتاب آخر يحمل نفــس العنــوان لأبــي الحسن بن يحي الفقيه. في حين أن المصادر القليلــة المتبقيــة مثــل كتاب"أنباء نجباء الأبناء" لحجة الدين الصقلي، وكتاب أبــي عبــد الله النقايري "ذكر اخبار صقلية" لا تحوي في ثناياهــا ســوى شــذرات متفرقة، وإيماءات محتشمة حول مسألة الهوية والأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والنفسية للأقلية الإسلامية، وأساليب تعايشها وتــساكنها مع الآخر، وكذا الإكراهات والاضطهاد الذي طالها أحيانا، وغير ذلك من القضايا التي تشكل الأسئلة المحورية لهذه الدراسة، وهي الأســئلة التي يمكن أن تفتح أوراشا بحثية جديدة قابلة للجدل والنقاش.

إن ما تبقى من متون نصية متفرقة نقلها مؤرخون متــأخرون من مصادر تعد اليوم مفقودة، بالإضافة إلى ما تم الكشف عنــه مــن

نصوص ألفت بعد نهاية الحكم الإسلامي بصقلية، وهي النصوص التي قام بجمعها المؤرخ ميخائيل أماري بكثير من الجهد والصبر، وواسع من الاطلاع والإلمام، ودقة في البحث والتنقيب، من شأنها - إذا أضيفت لها المعطيات النصية المستقاة من المصادر والوثائق اللاتينية واليونانية، وتطعيمها بالمعطيات الأركيولوجية، وباجتهادات الدارسين المعاصرين المتخصصين في الموضوع- أن تمدنا بصورة متكاملة حول الأقلية الإسلامية التي عاشت تحت الحكم النورماني قبل أن تسلم صقلية مقاليد أمرها لحكم الأسرة الألمانية ثم الإمبراطورية المقدسة بعد ذلك.

وبالمثل، فإن وثائق الأرشيف الصقلي، خاصة المكتبة المركزية لجهة صقلية La Biblioteca central della regione Sicilan المحررة باللغتين العربية واليونانية تساعد بدورها في إلقاء شعاع من الضوء حول بيع مسلمي صقلية ممتلكاتهم العقارية، أو التنازل عنها تحت الضغط والإكراه لفائدة السلطة النورمانية والكنيسة. وقد استثمر الباحثون الغربيون من أمثال Salvedor Cusa و Pierre Guichard وغيرهما هذه الوثائق، ثم استغلها بعد ذلك بعض الباحثين العرب في أبحاثهم. ومع ذلك، نعتقد أن هذه المعطيات التي توفرها الوثائق والمصادر الأولية لا تزال في حاجة إلى إعادة قراءة وفحص واستنطاق جديد على ضوء التحليل النفسي وردود الفعل ضد الصدمة، وعلى ضوء مفاهيم"المواطنة" و"الأقلية" و" الأكثرية"

و"الهوية" و"الاندماج الاجتماعي"، و"الحرية الدينية"، وما في رديف ذلك من المفاهيم التي أصبحت تفرضها القراءات الجديدة للتاريخ.

والجدير بالملاحظة أننا آثرنا استعمال مصطلح "الأقلية" الإسلامية في هذه الدراسة لا بالمفهوم العددي الذي نفتقر إليه بسبب غياب الأرقام والمعطيات الإحصائية، بل بمفهوم الجماعة التي تشعر بالاغتراب داخل مجتمعها، وتعاني من تحكم فئة أو مجموعات أخرى تسعى إلى حرمانها من التمتع بكافة حقوقها، أو تفرض عليها حظرا كاملا أو جزئيا لمختلف أنشطتها الاجتماعية والاقتصادية وحرياتها الدينية، وتمارس عليها صورا من الاضطهاد والإكراهات المعنوية والمادية والنفسية.

وتأسيسا على هذا المفهوم، يسعى هذا الكتاب إلى رسم الخطوط الأولية لوضعية الأقلية الإسلامية في صقلية عبر ستة مباحث أساسية مع مبحث تمهيدي، شكل الخيط الناظم بينها، وقد جرى تناولنها على شكل فرضيات وأسئلة تاريخية طرحناها على النحو التالي:

**1** - ما هي المعطيات الجديدة التي أفرزها الغزو النورماني، وخلق بها نمطا معيشيا مغايرا للنمط الذي ميّز المجتمع الصقلي إبان الحكم الإسلامي، وأثّر بكيفية مباشرة في الأقلية الإسلامية خلال الحقبة النورمانية الجديدة؟

2 – ما هي الظرفية الاجتماعية المستجدة، وأساليب الإنتاج الاقتصادية الجديدة التي أطرت وضعية الأقلية الإسلامية وحددت معالمها الأساسية خلال نفس الحقبة؟

3 – كيف تأرجحت المسألة الدينية للأقلية الإسلامية بين التسامح والاضطهاد؟

4 – ما هي حدود مساحات التعايش والاندماج ومشاهد الصدام بين الأقلية الإسلامية وباقي الإثنيات والأجناس الأخرى المكونة للمجتمع الصقلي؟

5 – كيف أثرت هذه التحولات في هوية الأقلية الإسلامية بصقلية، وما هو وقعها النفسي وردود فعلها، و كيف تعامل العقل الفقهي الإسلامي مع هذا الواقع الجديد؟

تلك هي الأسئلة المركزية التي نسعى من خلاله إلى استنهاض مغامرة التفكير للكشف عن وضعية مجموعة بشرية تجسّد أقلية مغتربة ومنعزلة في "دار الكفر"، والحفر في المشاعر السيكولوجية لمجموعة بشرية تغيّر زمنها التاريخي، فاتجهت –دون بوصلة- نحو المصير المجهول الذي كان يجثم على كيانها الاجتماعي، رغم ما حظيت به من تسامح في بعض الفترات التاريخية. كما نسعى من خلال الإجابة عن هذه الأسئلة، إلى إلقاء شعاع من الضوء حول مفاهيم تاريخية مقتبسة من علم الاجتماع السياسي من قبيل " الأقلية" و" الهوية" و" المواطنة" و"الجماعات المهمشة"، و"الاندماج

الاجتماعي"، وما في سلالة هذه المفاهيم التي نعتقد أنها تسمح بتركيب أفق جديد لبعض فصول تاريخ الغرب الإسلامي، وتضعه في سياق المشترك التاريخي المتقاسم بين " الأنا" والآخر، فإن أصبت في رسم معالم الطريق التي اخترتها لهذه الدراسة فذلك غاية المراد، وإن أخطأت فأجر الاجتهاد على الأقل.

وفي الختام لا يسعني إلا ان أجزل الشكر صادقا للسيد رئيس جامعة مولاي إسماعيل بمكناس، والسيد عميد كلية الآداب على إتاحتهما لي فرصة نشر هذا الكتاب الذي آمل أن تمتد إليه يد النقد والفحص والمراجعة، والله ولي التوفيق.



## خلفية نظرية:

# في مفهوم الأقليـة

تعتور سبيل الباحث في الأقليات عدة صعوبات مرتبطة بالمفهوم والسياق التاريخي، وبحقل الدراسة ومجالها، واختلاف المقاربات التي يتم توظيفها. لذلك نسعى في هذا المبحث إلى مناقشة مفاهيمها وأبعادها من أجل توضيح الرؤية التي نعتمدها في هذه الدراسة حول مفهوم "الأقلية الإسلامية".

## I- الإشكالية ومقارباتها:

### 1- في المفهوم والمصطلح:

يختلف مفهوم الأقلية حسب مركزية الاهتمام الذي ينطلق منه الباحث، والسياق الذي يندمج فيه ذلك المفهوم، والوظيفة التي يراد أن يقوم بها. كما يختلف حسب المرجعية التاريخية والنسق الحضاري والانتماء الزماني والمكاني، حتى أن البعض أقرّ بصعوبة الوصول إلى صياغة إجماع عام حول تحديد مفهوم الأقلية[1]. ومع ذلك سنسعى

---

[1] Unesco, Communautés minoritaires Education des adultes et communautés minoritaires, atelier sur les minorités, organisé lors de la Ve conférence internationale sur l´éducation des adultes (confintea), Communautés minoritaires, Hamburg, Juillet1997, p47, PDF publié sur le Web:
http://www.unesco.org/education/uie/confintea/pdf/Fra_1c.pdf

لاستقصاء كافة المفاهيم ذات الصلة، لاستخلاص المفهوم المناسب لطبيعة الموضوع المطروح في هذه الدراسة.

من ناحية البنية اللغوية، فإن مصطلح الأقلية مشتق من مصدر القلّة التي هي خلاف الكثرة والقلّ خلاف الكثر. ويقال قلّ، يقلّ قلة وقلا فهو قليل وقلال (بالضم) وقلال (بالفتح)، وقلّله وأقله جعله قليلا، وأقلّ الشيء: صادفه قليلا وأقلّ الرجل : افتقر. ويتوسع ابن منظور في تفسير العديد من الدلالات اللغوية المرتبطة بهذا المصطلح، وكلها تصب في اتجاه المعنى الضدي للكثرة[1].

أما من الناحية الاصطلاحية، فالأقلية تحمل دلالة الجماعة التي تعيش خارج حدود الدولة التي تنتمي إليها، ويتمتع أفراد هذه الجماعة بما يعرف اليوم بالجنسية أو المواطنة، لكنهم يمتلكون هوية وثقافة وعادات تختلف عن معظم الإثنيات والأعراق المكونة للمجتمع الذي يقيمون فيه[2].

وثمة ملاحظتان أوليتان تستوقفان الباحث في مفهوم الأقليات:

**1**- إن مصطلح " أقلية " مصطلح حديث وطارئ حتى على الثقافة الغربية نفسها، إذ لم تعرف منابته الأولى في البيئة الغربية إلا ابتداء من القرن الثامن عشر.

---

[1] ابن منظور، لسان العرب، دار إحياء التراث العربي، بيروت 1999 ، ج11، ص 287.

[2] سليمان محمد توبولياك، الأحكام السياسية للأقليات المسلمة في الفقه الإسلامي، (ط1)، دار النفائس، عمّان – دار البيارق، بيروت 1997، ص 27.

2- ليس هناك سياق محدد في استعمال مصطلح "أقليـة"، بـل غالبا ما يتم توظيفه ضمن سـياقات متعـددة كالـسياق القـانوني أو الاجتماعي أو السياسي، للتعبير مثلا على الأقلية المدنيـة أو الأقليـة العرقية أو الأقلية البرلمانية. بيـد أن المـشترك بـين جميـع هـذه الاستعمالات يكمن في مبدأ التمايز والتعارض بين " أقلية " و"أغلبية". وتأسيسا على ذلك فإن الأقلية كواقع ملموس لا توجـد لـذاتها، بـل تتحقق من خلال علاقتها بالأغلبية، وبكل العناصر المكونة للمجتمع[1].

وقد تمّ تعريف الأقلية في تقرير اللجنة الفرعية لمنـع التمييـز وحماية الأقليات بأنها تلك المجموعات غير الغالبة التي تتميز بتقاليـد وخصائص عرقية أو دينية أو لغوية، أو بمجموعة خصائص تختلـف كليا عن تلك التي تميز بقية السكان، وتكافح من أجل الحفاظ على تلك الخصائص للحيلولة دون الذوبان في ثقافة الأغلبية [2]. وبتعبير آخـر، فإن المقصود بالأقلية – حسب هذا التقرير – يشير إلى مجموعة مـن سكان قطر أو إقليم أو دولة تخالف الأغلبية في الانتمـاء العرقـي أو

---

[1] Fernet (Alain), "Essai sur la notion de la minorité nationale", Publications de la faculté de droit et des sciences politiques et sociales d'Amiens, n° 7, PUF, 1977, p 96.

[2] سليمان محمد توبولياك، م، س، ص 28.

اللغوي أو الديني، دون أن يكون لها بالضرورة موقف سياسي متميز[1].

ويستشف من مجمل هذه التعريفات والتقارير الصادرة عن المنظمات العالمية أن الشروط المؤسسة للأقلية تكمن في :

- وجود جماعة بشرية تعيش خارج حدود موطنها.

- لا يتحقق وجود هذه الجماعة إلا بوجودها ضمن أغلبية تشاركها في تأثيث مشهد الكيان الاجتماعي والسياسي الذي تنتمي إليه.

- تتميز الجماعة المذكورة عن الجماعة أو الجماعات الأخرى (الأغلبية) باختلاف عرقي أو ديني أو لغوي أو طائفي أو حضاري...

- تسعي الجماعة إلى الحفاظ على تقاليدها وعاداتها، وتحرص على عدم التفريط في ذاتها وهويتها.

بيد أن وجود أقلية ما، لا يكتمل إلا بإضافة معطيين آخرين: أولهما وجود كيان سياسي تمثله الأمة أو الدولة التي تبسط سلطتها على الأقليات وعلى كل العناصر الاجتماعية المكونة لأقاليمه[1].

---

[1] عبد الوهاب الكيالي، موسوعة السياسة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 1987 (ط1)، ج1، ص 244.

وثانيهما حضور وعي بالعنصر الذاتي المتمثل في إدراك جماعة معينة باختلافها وتمايزها عن باقي الجماعات الأخرى رغم تعايشها معها، وهو ما يتمخض عنه الشعور بالانتماء إلى أقلية معينة مقابل جماعات الأكثرية، وإدراك هذه الأخيرة نفسها لهذا الاختلاف، وبكونها تشكّل طرفا فيه[2].

إن الوعي بالخصائص المشتركة التي تميز الأقلية يحقق لها تماسكها الداخلي، ويعضد وحدة سلوكها ومواقفها تجاه الجماعات الأخرى. ومن ثم تصبح وظيفة الأقلية نتاج عمليتين: استقطاب كل من يشارك معها في تلك الخصائص، واستبعاد كل من يعاكسها، ولذلك شبهت الأقلية ((بالعملة ذات الوجهين: أحدهما الشعور بالانتماء، والآخر هو الشعور بالتمايز))[3]. ففي ظل هذه الثنائية يمكن قراءة تاريخ الأقليات.

### 2- المقاربات الأساسية لتحديد مفهوم الأقلية:

من خلال المنجز المتداول في مجال دراسات الأقليات، يمكن استنتاج ثلاث مقاربات صيغت كمعايير لتحديد مفهوم الأقلية.

---

[1] محمد بن شاكر الشريف، وضع الأقليات في الدولة الإسلامية، بحث محمّل ومنشور بتاريخ 2010/6/8، ص4 بالرابط الإلكتروني: Ar.islamway.com/book/3451

[2] جاد الكريم الجباعي، مسألة الأقليات، مقال منشور بالرابط الإلكتروني :
http://hem.bredband.net/b153948/stu14.htm

[3] موفق محمد الماني، الأقليات، مقال نشر بتاريخ 30 أيلول 2006. انظر الرابط الإلكتروني لشبكة النبأ المعلوماتية:

http://www.annabaa.org/nbanews/59/229.htm

- **المقاربة العددية والنسبية:**

تؤسس هذه المقاربة مفهوم الأقلية بناء على العدد أو النسبة. ويذهب أنصار هذه المقاربة إلى القول بأن قلة عدد جماعة ما بالنسبة للجماعة أو الجماعات الأخرى الأكثر عددا ونسبة، هو ما يحتم تصنيفها في خانة الأقلية. على أن تكون هذه الجماعة القليلة العدد متمايزة عن غالبية العناصر الاجتماعية الأخرى من ناحية العرق أو اللغة أو العقيدة والتاريخ والحضارة والعادات، أو كل ذلك[1].

- **مقاربة الجماعات المهمّشة:**

ترى هذه المقاربة أن مفهوم الأقلية لا يتأسس على قلة عدد الجماعة أو ضعف نسبتها، بل على مدى ضعفها وعدم قدرتها على الهيمنة والتأثير في باقي الجماعات الأقوى التي يتشكل منها المجتمع. وقد تكون هذه الجماعة هي الأكثر عددا، لكنها بافتقارها إلى القوة والتأثير في مسار المجتمع، تتحول تلك "الأكثرية" المفترضة إلى أقلية مهمّشة فاقدة لأيِ ثقل اجتماعي[2]. فالتهميش من دائرة المجتمع يكون -وفق هذه المقاربة- أكثر المعايير دقة في تحديد مفهوم الأقلية، ذلك أن حرمان جماعة ما من حقوقها السياسية والثقافية والاقتصادية

---

[1] جاد الكريم الجباعي، م.س، ص3.
[2] محمد بن شاكر الشريف، م.س، ص4.

والاجتماعية هو ما يحدد كينونتها كأقلية، حتى ولو كان عددها النسبي يمثل الأكثرية[1].

وفي ذات الاتجاه، تبنت الموسوعة الدولية للعلوم الاجتماعية تعريفها للأقلية بأنها مجموعة من الأفراد الذين يتميزون عن بقية أفراد المجتمع عرقيا أو قوميا أو دينيا أو لغويا، ويعانون من نقص سلبي في القوة وقرارات التحكم، ويخضعون بسبب ذلك لبعض أنواع الاستعباد والاضطهاد والمعاملة التمييزية.

**- مقاربة الجماعات المسيطرة:**

تنطلق هذه المقاربة من مبدأ السيطرة والهيمنة التي تمارسها فئة تكون في موقع الحاكم على حساب فئة مستضعفة تكون في وضعية المحكوم. وغالبا ما تنشأ هذه الثنائية المتصارعة نتيجة غزو أو احتلال أو هيمنة سياسية واقتصادية استعمارية، يصبح من خلالها المحتل هو الغالب، فيسيطر على مقدرات المغلوب الذي يصبح في وضع الأقلية مهما كثر عدده أو تضخمت نسبته، مع احتمال طمس هويته. وفي هذا الصدد يعطي أحد الباحثين نماذج لأراضي إسلامية سعت القوى الاستعمارية إلى دمج سكانها الأصليين مع سكان الدولة المحتلة لتذويب هويتها، كما حدث ذلك في شرق أوروبا والهند[2].

---

[1] L'atelier sur les mìnorités… , Op.Cit, p 47-48.

[2] سليمان محمد توبولياك، م، س، ص 29.

ويمكن للمحتل إغراق البلد المحتل بمستوطنين وافدين من الدولة المستعمرة بهدف الدمج النهائي أو القضاء على السكان المحليين الأصليين كما وقع في أمريكا، أو كما يعكسه نموذج الأقلية الإسلامية في صقلية موضوع دراستنا، حيث استأسد الاحتلال النورماني في إدماجها مع السكان الوافدين على صقلية بعد سقوطها في أيديهم.

وتنحو الموسوعة العربية نفس المنحى، إذ تكشف أن تباين توزيع الثروات والموارد يؤدي إلى ظهور مستغل ومستغل، فتنشأ نتيجة لذلك أقليات محكومة ومضطهدة من قبل أكثريات، وهو ما حدث في أكثر من حضارة تعرضت للغزو والاحتلال، وما تمخض عنه من هجرة وتهجير، وتسخير المغلوبين لخدمة الغالبين.[1]

ويبدو من خلال تمحيص المقاربات الثلاث، أن المقاربة العددية والنسبية تفتقر إلى صلابة الحجة وقوة القرائن. فأهمية الجماعة لا ترتبط بوفرة عددها قدر ارتباطها بالنفوذ والهيمنة ودورها المؤثر في مجتمع الأكثرية. وتثبت الوقائع والقرائن التاريخية أن بعض الطوائف الاجتماعية استطاعت رغم قلة عددها أن تؤثر تأثيرا بالغا في مجتمع الأكثرية، بل استطاعت أن تهيمن على مقاليد الحكم، وتجعل هذه الأكثرية فاقدة لحقوقها السياسية والاجتماعية، وهو ما يطلق عليها

---

[1] انظر الموسوعة العربية على الرابط الإلكتروني :
http://www.arabency.com/index.php?module=pnEncyclopedia&func=display_term&id=468&m=1

علم الاجتماع السياسي اسم الأقلية الاستراتيجية، والمتمثل في نموذج جنوب إفريقيا بالنسبة للتاريخ الراهن.

يستشف من حصيلة المقاربات النظرية المقتبسة من علم الاجتماع السياسي أن معيار العدد في تحديد الأقلية معيار غير موضوعي لأنه ينظر إلى الأقلية كعدد، بقطع النظر عن وضعها السياسي والاجتماعي، وما إذا كان أفرادها يتحكمون في مقاليد الدولة، أم يندرجون في عالم المغلوبين والمهمشين[1]. كما أنه يتغافل عن كون الانتماء لأقلية ما ليس جامدا، وإنما هو متغيّر بتغير استراتيجية المصالح. لذلك فإن المقياس العددي ((يصبح ثانويا)) وفق ما توصل إليه Alain Fernet. بل على عكس مجرى هذا التصوّر، أكد هذا الباحث صحة مقاربة الجماعات المسيطرة التي تتميز بالقوة والغلبة والتأثير في مسار الأحداث، كمعيار أساسي في تحديد الأقلية أو الأكثرية سواء كانت أكثر عددا أم أقل[2].

بناء على المعطيات التحليلية السابقة، فإننا في هذه الدراسة نميل إلى توظيف مفهوم الأقلية القائم على مقاربة الجماعات المسيطرة، وقدرة الغالب على التأثير في رسم معالم سياسة الدولة وشرائعها مهما كان عدده ونسبته المئوية. وتستمد هذه الجماعات

---

[1] سليمان محمد توبولياك، م، س، ص29.

[2] Fernet (Alain), Op,Cit , p 98.

الغالبة قوتها من الغزو والاحتلال الذي بفرز جماعة متحكمة في دواليب الدولة، مقابل جماعة محكومة تتميز بالضعف، وتطبّق عليها كل أساليب الاستغلال والتهميش. وبطبيعة الحال فإن النورمان – حسب المعيار الذي تبنيناه بخصوص مفهوم الأقلية– يجسدون الجماعة الأولى، وحسبنا أنها الفئة الحاكمة التي احتلت أرض المسلمين في صقلية رغم أنها لم تكن تمثل سوى أقلية، لكنها أصبحت القوة المهيمنة والمتحكمة في مقاليد الحكم، مقابل الطرف الآخر الذي تجسده الأقلية الإسلامية التي غدت بعد الاحتلال النورماني لمجالها السياسي مستضعفة، مهضومة الحقوق، وفاقدة لأي وزن سياسي، بل يمارس عليها كل أشكال الاستغلال والتهميش، وينظر إليها نظرة دونية، وتقبع في ذيل السلم الاجتماعي رغم بعض الاستثناءات كما يتضح من خلال المباحث القادمة من هذه الدراسة.

**3- مفاهيم فقهية للأقليات في "دار الإسلام" و"دار الكفر":**

يتباين مفهوم الأقلية بين "دار الإسلام" و"دار الكفر" نتيجة عوامل مرتبطة بالعقيدة والتاريخ والبيئة والثقافة كما سنبينه من خلال البيان الآتي:

**أ- مفهوم الأقليات في "دار الإسلام":**

يجمع الباحثون على أن مصطلح " أقلية" لم يرد في الأدبيات الإسلامية، سواء كانت تاريخية أو فقهية أو في كافة مناحي المعرفة الإسلامية. فكل ما لدينا من مخزون التراث الإسلامي لا يتجاوز

مصطلحات مغايرة لفظا، لكنها متقاربة في المضمون مع مفهوم الأقلية، من ذلك على سبيل المثال مصطلحات الطائفة، والفرقة، وأهل الملل وأهل النحل، فضلا عن أهل الذمة والمعاهدين وغيرها من المصطلحات المثيلة.

ويعزي بعض الباحثين[1] انعدام ورود المصطلح في أرشيف التراث الإسلامي إلى سببين على الأقل:

1- عدم اعتراف الإسلام بالتقسيمات الجغرافية، ومنظوره الإنساني للكون والخلق على أنه حركة موحدة ومتناسقة تميل إلى التجانس، وتبتعد عن شرّ التصادم، وإرجاعه البشر إلى أصل واحد وهو الأصل الترابي، وإلى أب واحد وهو آدم، لذلك فإن التقسيمات البشرية والحدود الجغرافية التي عرفتها البشرية، إنما حدثت بفعل بشري، بعيد عن حقيقة الأصل الذي يتعارض مع ثنائية أقلية/وأكثرية، فالشعوب تمثل أسرة واحدة وإن افترقت في الأرض وتمايزت عن بعضها البعض، فالمشترك الأبوي والمنبت الترابي الواحد، يجعلها متماسكة غير قابلة للتمييز بين أعضائها.

2- إن العدالة التي يتميز بها الإسلام سوّت بين البشر في الحقوق والواجبات، واعتبرت أهل الذمة (وهم في الأصل أقليات كانت تعيش في ظل الدولة الإسلامية دون أي شعور بأنهم يشكلون

---

[1] سليمان محمد توبولياك، م، س، ص27- 28.

أقلية) كيانا متجانسا يتمتع أعضاؤه بنفس الحقوق التي كان يتمتع بها المسلم، حتى أن الرسول الكريم حذر من مغبة أي تجاوز أو تطاول على حقوقهم، وحسبنا دليلا على ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: ((من ظلم معاهدا أو كلفه فوق طاقته، فأنا حجيجه يوم القيامة))[1].

والجدير بالملاحظة أن المقاربة العددية والنسبية لا تستقيم مع مبادئ العقيدة الإسلامية، لأن مسألة القلة لا تعني في الإسلام استصغار جماعة أو استضعافها أو هضم حقوقها بسبب قلّتها. والنص القرآني يقدم القرينة الدامغة في هذا الصدد، فالله تعالى يرفع من قيمة الفئة القليلة، ويؤكد حتمية انتصارها في معركة الحق ضد معسكر الشر مصداقا لقوله عزّ وجلّ: { كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ}[2]. فضلا عن ذلك، فإن الإسلام يؤمن بالاختلاف، ويرى فيه طاقة لاستمرارية كينونة الحياة وديناميتها، ويؤمن بالتعددية، ويناهض أي معيار للتمايز الاجتماعي باستثناء معيار التقوى[3]. كما يسمح بتعدد اللغات، ولا يعارض العادات والتقاليد التي تتماشى مع الشرع. أما بالنسبة للديانات الأخرى غير الإسلامية، فإنه يعتبر معتنقيها من

---

[1] سنن أبي داود، إعداد عزت الدعاس، دار الحديث ( ط1)، بيروت 1969. ج3، ص 427.

[2] سورة البقرة، آية 249.

[3] قال تعالى: { وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ}، سورة يونس ، آية 19.

رعايا الدولة، ويؤمّن لهم كافة الحقوق بما في ذلك حقـوق المواطنـة، وكفل لهم الحرية الدينية مقابل ضريبة رمزية، هي ضريبة الخراج[1].

تأسيسا على ما تقدم، يبدو من الصعوبة بمكان توظيف مصطلح "الأقلية " في المجتمعات الإسلامية، قديمها وحديثها، دون السقوط في مزالق الإسقاط والتعميم، على عكس ما سنلاحظه بالنسبة للجماعـات الإسلامية المقيمة في " دار الكفر".

**ب- مفهوم الأقلية في "دار الكفر" والموقف الفقهي منها:**

مع أن النصوص الإسلامية لم تستعمل مصطلح "أقليـة" فـي مرجعياتها المختلفة، إلا أننا سنوظف المصطلح لا كمفهـوم إجرائـي يساعد على التحليل والاستقصاء فحسب، بـل لأن وضـعية الأقليـة الإسلامية في صقلية التي صارت في عداد "دار الكفر" بعـد الغـزو النورماني، اختلفت بالمرة عن نظيرتها في "دار الإسلام". فـإذا كـان أهل الذمة وأصحاب الفرق والنحل قد توافرت لهم الظروف الإنسانيَة وحقوق المواطنة بحيث لم يشعروا بأنهم يشكلون أقلية تواجه أغلبيـة في الدولة الإسلامية، فإن الوضعية اختلفت عن ذلك في "دار الكفر".

ودون مصادرة الأحكام، وفي انتظار أن نجيّش كـل الـدلائل والقرائن على صحة هذه الفرضية في ثنايا المباحث القادمة من هـذا

---

[1] مفهوم الأقلية، مجلة الوعي، عدد 225، شوال 1426 هـ، تشرين الثاني 2005، الحلقة الثانية، انظر الموقع الإلكتروني:
http://www.alwaie.org/issues/225/article.php?id=262_0_22_0_C

الكتاب، نكتفي في هذا المقام بالوقوف على مفهوم الأقلية الإسلامية في "دار الكفر" بالقول أنها جماعة من المسلمين، تعيش تحت سيطرة كيان سياسي أو دولة غير مسلمة، في وسط أغلبية غير مسلمة كذلك، مما يجعلها مكرهة على العيش في بيئة تكون فيها الثقافة الإسلامية مسودة بدل أن تكون سائدة، وهو ما لا يساعد على تثبيت أركان الهوية الإسلامية، ولا على تنمية القيم الإسلامية. ومقابل ذلك تسعى الثقافة السائدة في "دار الكفر" إلى إدماج تلك الجماعة وتذويب شخصيتها [1].

ويبدو أن سيادة شريعة وقانون "دار الكفر" في المجتمعات التي تقيم بها الأقليات الإسلامية هي التي تحكمت في نسج خيوط هذا المفهوم من قبل العقل الفقهي الإسلامي. فالكاساني يرى أن "دار الكفر" هي التي تقع تحت سلطة الكفار وتسود فيها شريعتهم حتى ولو كان عددهم قليلا [2]. وبهذه السيادة القانونية المفروضة، تصبح الأقلية الإسلامية تعيش في بيئة غريبة عنها، وتخضع لتمييز عرقي واضح حتى ولو كانت الفئة المتحكمة فيهم قليلة العدد كما يشير إلى ذلك تعريف الكاساني.

---

[1] علي الكتاني، الأقليات الإسلامية في العالم اليوم، مكتبة المنار (ط1) مكة المكرمة 1988، ص6.

[2] الكاساني، بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، دار الكتب العلمية، بيروت، ج7، ص 130 - 131.

انطلاقا من هذه الإشكالية، كان سؤال إقامة المسلمين في دار الكفر من الأسئلة التي أرقت العقل الفقهي الإسلامي. وقد اختلف الفقهاء في تقييم الوضع الناتج عن الإقامة بين ظهراني بلد تحكمه الشرائع الكافرة، إلا أن ما يهمنا في إطار الارتباط المكاني بموضوع الدراسة هو رأي الفقه المالكي، باعتبار المالكية كانت مذهب الغرب الإسلامي وضمنه صقلية.

لقد منع فقهاء المذهب المالكي- مؤيدين في ذلك بأقطاب المذهب الظاهري – إقامة المسلم في "دار الحرب"[1]. ويؤكد الفقيه المالكي أبو بكر بن العربي هذا المنحى بقوله: ((الخروج من دار الحرب إلى دار الإسلام كان فرضا في أيام النبي صلى الله عليه وسلم، وهذه الهجرة باقية إلى يوم القيامة، والتي انقطعت هي القصد إلى النبي صلى الله عليه وسلم حيث كان)). والراجح أن فقهاء المالكية تبنوا هذا الرأي استنادا إلى قول النبي (ص): ((أنا بريء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين))[2].

من جهة أخرى، انطلق العقل الفقهي المالكي من مبدأ أن المسلمين المقيمين في "دار الحرب" يكونون عرضة للاستضعاف والاضطهاد من قبل الأكثرية غير الإسلامية، وهو تصور يجد

---

[1] الإمام مالك، المدونة الكبرى، دار الكتب العلمية (ط1)، بيروت 1994، ج5، ص 466.
[2] ابن العربي، أحكام القرآن، تحقيق علي البجاوي، دار الفكر، بيروت، ج1، ص 484.

مرجعيته في النموذج النبوي، وفي وضعية المسلمين بمكة قبل هجرة الرسول (ص) منها نحو المدينة المنورة، وهو النموذج الذي يمثل ذروة المحنة والآلام التي عصفت بالأقلية المؤمنة، لذلك ارتأى منظرو الفقه المالكي أنه لا يجوز للمسلم أن يرضى لنفسه بالضعف والاضطهاد من أي أحد مهما كان، باعتبار أن الاضطهاد ظلم، والرضا بالظلم ظلم، والقبول به شرعا جرم، ناهيك عن خشية المسلم من أن تجري عليه أحكام الكافر[1].

إن الأقليات الإسلامية في المجتمعات غير الإسلامية تصبح حسب المنظور الفقهي المالكي ضحية للاستضعاف والإذلال، وتفتقر إلى أبسط مقومات الصمود والمواجهة مع الثقافة المهيمنة نتيجة عدم امتلاكها القوة وأدوات الممانعة، لذلك يتحتم عليها عدم الإقامة في دار الكفر.

لكن يبدو أن العقل الفقهي المالكي أو جزءا منه على الأقل كان غارقا في التنظيرات أكثر من تركيزه على قراءة المشهد الواقعي المعقد للأقليات الإسلامية في مجتمعات "دار الكفر". كما أغفل كثيرا من الحيثيات والمعطيات التي كان ينطق بها الواقع التاريخي، والتي تدل على أن ترك تلك الديار لم يكن بالأمر السهل أو الهيّن، وهو ما

---

[1] وهبة الزحيلي، تبصير المسلمين لغيرهم بالإسلام : أحكامه وضوابطه، منشورات المجمع الملكي لبحوث الحضارة، عمّان 1989، ص 377 - سليمان محمد توبولياك، م، س، ص49.

سيتجلى في المباحث القادمة، من خلال الدراسة التطبيقيـــة لنمـــوذج الأقلية الإسلامية بصقلية تحت الاحتلال النورماني.

## المبحث الأول:

# تغيّر الزمن التاريخي:
# من السيادة الإسلامية إلى
# السيادة النورمانية

بدأت جزيرة صقلية تندرج في أولويات السياسة العربيــة منـذ القرن الأول الهجري/7م، إبان العهد الأموي فــي ســياق الــسياسة المتوسطية لدولة الخلافة، ولكنها لم تترجم إلى قرار فعلي حتى بداية القرن الثالث الهجري/ 9م في عهد الدولة الأغلبية التي أرسلت حملـة عسكرية بقيادة أسد بن الفرات سنة 212 هـ/ 827م. وقد نجحت هـذه الشخصية التي كانت تجمع بين القيادة العسكرية والنبوغ العلمي فــي فتح صقلية، وضمّها لدار الإسلام[1]. ومنذئذ مرّت صــقلية بمــرحلتين أساسيتين: مرحلة السيادة الأغلبية (212- 296 هـ/ 827- 909م)، ثم مرحلة السيادة الفاطمية (296 – 431 هــ/ 909- 1040م)، قبــل ان تدخل في مرحلة فتن وانقسامات تمخــض عنهــا فقــدان الــسيطرة الإسلامية عليها وانتقالها للسيادة النورمانية ســنة 484 أو 485 هــ /1091-1092م حسب اختلاف الروايات[2]. وبذلك تكــون صــقلية قــد ارتبطت بالحكم الإسلامي مدة تربو عن القرنين والنصف.

---

[1] ابن عذاري، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ليفي بروفنسال وس. كولان، دار الثقافة، بيروت 1980، ج1، ص 102- 103.

[2] يحدد ابن الأثير سنة 484هـ كتاريخ لسقوط صقلية في يد النورمان، أنظر: الكامل في التاريخ، دار الفكر، بيروت 1978، ج8، ص 157، بينما يجعلها ابن الخطيب سنة 485 هـ. أنظر: أعمال الأعلام، تحقيق أحمد مختار عبادي ومحمد إبراهيم الكتاني، دار الكتاب، الدار البيضاء 1964، ج3، ص 129.

جسّدت لحظة الغزو النورماني لصقلية محطة مفصلية في تاريخ الإسلام بصقلية، وشكّلت منعطفا جديدا أسفر عن طي آخر صفحة من صفحات السيادة العربية على الجزيرة التي أصبحت منذئذ في يد السلطة النورمانية. وتمخض عن هذا المعطى الجديد تحولات كان أبرز تجلياتها فقدان السيادة الإسلامية على المجال المتوسطي، وانكماش الوجود الإسلامي في صقلية، وخروج هذه الأخيرة من مجال "دار الإسلام" ثم هجرة معظم المسلمين منها، مقابل بروز قوة النورمان وتحكمهم في مجريات الاقتصاد المتوسطي بعد سيطرتهم على المضايق الحيوية في صقلية وإفريقية. فمن هم هؤلاء القادمون الجدد؟ وما هي المعطيات التي كانت وراء سقوط صقلية في أيديهم؟، وكيف تحول مسلمو صقلية من أكثرية إلى أقلية دينية؟

**1 – في التعريف بالمكان وثرواته الاقتصادية:**

من ناحية البنية الصوتية، تنطق صقلية Sicily في اللغة العربية حسبما ضبطها ياقوت الحموي بثلاث كسرات وتشديد اللام والياء، وينطقها البعض بحرف السين بدل الصاد. أما أهل صقلية فيفتحون الصاد واللام. وتتخذ شكل مثلث ضخم بين كل زاوية وأخرى مسيرة سبعة أيام، ويبلغ دورها مسيرة خمسة عشر يوما، ولا يفصلها عن بر

إفريقية سوى 140 ميلا[1]. وقد عرف تاريخ تعميرها تغيّرا واضح المعالم بعد الفتح الإسلامي لإفريقية، حيث نزح معظم ساكنة هذه المنطقة والتحقوا للإقامة في ربوعها[2].

أما من ناحية الموقع، فتمثل صقلية وفق ما ورد في الأدب الجغرافي العربي أكبر الجزر المتناثرة في الحوض الغربي للبحر المتوسط[3]، وتقع بمحاذاة ساحل إيطاليا الجنوبي الذي لا يفصلها عنه سوى مضيق صغير. وتطلّ على الساحل الشمالي للشمال الإفريقي، خاصة إفريقية (تونس)، وتحيط بها ثلاثة بحار: البحر اليوني Mare Iyono في جهة الشرق، والبحر التيريني Terreno في الشمال، والبحر الصقلي من ناحية الجنوب والغرب، مما جعلها تحتل موقعا جغرافيا استراتيجيا يمثل حلقة وصل بين الشرق الإسلامي والغرب المسيحي، وبلدان شمال إفريقيا. ناهيك عما احتلته من مكانة في مجال الجغرافية الدينية حيث شكلت معبرا لانتقال الصراع الديني من الغرب إلى الشرق فيما يعرف تاريخيا بالحروب الصليبية. كما أن هذا الموقع الجغرافي مكّن صقلية من أن تكون منطقة عبور لانتقال منتوج الحضارة الإسلامية نحو القارة الأوروبية.

---

[1] ياقوت الحموي، معجم البلدان، دار الكتاب العربي، بيروت (دون تاريخ)، ج3، ص416.

[2] المصدر نفسه، ص 417.

[3] الإصطخري، المسالك والممالك، تحقيق محمد جابر عبد العال الحيني، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، الدار العامة للثقافة، القاهرة 1961، ص 51.

بهذا الموقع الذي جعلها محطة "ترانزيت"، احتلت صقلية مكانة متميزة في قلب التنافس الدولي الطامح للسيطرة على شرايين البحر المتوسط، والإمساك بالخيط الناظم للتجارة المتوسطية وتفاعلاتها مع تجارة القوافل الصحراوية. فأصبحت أيقونة لافتة في عالم الاقتصاد، ومحطة مهمة في تجارة الترانزيت لتبادل منتجات الدول المتوسطية، وبضائع الشرق. كما شكلت طرقها البحرية مقدمة لاستقبال سلع تجارة القوافل الصحراوية، فغدت نتيجة لذلك همزة وصل بين الغرب والشرق والجنوب. وهو ما يفسر كثرة الموانئ البحرية في الجزيرة، ضمنت لها نجاح عمليات استقبال وتصدير البضائع المتنوعة، لعل أهمها ميناء مسينة وميناء باليرمو وميناء جلفودي وقطانية وغيرها من الموانئ التي كانت تشكل منافذ بحرية منفتحة على العالم آنذاك.

أما ثروتها الطبيعية والمعدنية وخيراتها وخصوبة أراضيها ووفرة إنتاجها فأمر أجمعت عليه المصادر. ولا غرو فقد وصف المقدسي ثروتها المائية واختراق الأنهار لأراضيها، تولّدت منها ثروات شجرية وغابوية ومناطق زراعية رغم كثرة الجبال المنتشرة بها[1]. وفي نفس المنحى يزودنا ابن جبيز[2]، وهو مصدر رحلي معاصر للمرحلة موضوع الدراسة، بوصف هام عن خصوبة مجالاتها

---

[1] المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، دار صادر، بيروت ( دون تاريخ)، ط2، ص 215 - 216

[2] ابن جبير، رحلة ابن جبير، دار صادر، بيروت 1964، ص 216.

الزراعية، وما توجد فيه من ثروة شجرية توفر منتوجات وافـرة مـن الفواكه والثمار المتنوعة.

ويتحدث ابن حوقل عن باليرمو عاصمة صـقلية مـن موقـف المشاهد بالعيان، فيذكر أسواقها المنظمة، وصناعاتها الحرفيـة، ودار صناعتها الممتدة على ساحل البحر، والتي كانت تزود صقلية بمختلف السفن المعدة للإبحار في الخطـوط البحريـة، وتـصدير واسـتقبال البضائع، ناهيك عن شارع "السماط" الذي كان فضاء اقتصاديا يغـص بشتى أنواع السلع التجارية[1].

ونظرة راصدة للنصوص البلدانية، تسمح بالوقوف على اصناف المعادن التي كان يزخر بها باطن الأرض بصقلية من قبيـل الكحـل والزجاج والنشادر، والكبريت وزيت النفط الأصفر الذي يطفح علـى سطح ماء الآبار خلال بعض الشهور التي كان أهل صقلية يعرفونهـا عن طريق المعرفة والتجربة[2]. وكانت هذه المعادن تستخرج، ثم يـتم تصنيعها. ولا يخامرنا الشك في أن وفرة ثرواتها الزراعية والمعدنيـة ووقوعها في موقع استراتيجي في شبكة خطوط التجارة الدوليـة، مـا جعل مختلف القوى تتنافس على امتلاكها، حيـث حكمهـا الرومـان

---

[1] ابن حوقل، صورة الأرض، دار مكتبة الحياة، بيروت 1979، ص114، 117

[2] القزويني، آثار البلاد واخبار العباد، دار صادر، بيروت ( دون تاريخ)، ص 215. وانظر أيضا: البكري، المسالك والممالك، تحقيق أدريان فان ليوفن وأندري فيري، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1992، ج1، ص 482، 484.

والبيزنطيون والمسلمون، قبل أن تدخل في المرحلة التي تشكل زمنية هذا البحث، وهي المرحلة النورمانية.

## 2- النورمان: بطاقة تعريف

اشتق مصطلح النورمان Normans من لفظ الشماليين Northmen أي رجال الشمال، والمقصود بالشمال في هذا المعنى شمال أوروبا، أي تلك الشعوب التي تنتمي إلى ما يعرف حاليا بالشعوب الإسكندنافية، خاصة السويد والنرويج. وقد ورد ذكرهم في المصادر العربية باسم ((الأردمانيين))، و((المجوس))[1]. ولا شك أن المصطلح الأخير يدعو إلى إثارة التساؤل كيف خلطت المتون النصية العربية بين المجوس وهم الفرس الذين ينعتون بهذا المصطلح لكونهم من عبدة النار، والمجوس الروس من جهة، وبين "المجوس" النورمان من جهة أخرى؟ قد يكون قرب هؤلاء من المجال الجغرافي للروس ما جعل المؤرخين العرب يطلقون نفس التسمية على النورمان والروس حتى أن اليعقوبي والمسعودي[2] أرجعا نسب الشعبين معا إلى الجنس الروسي، مع ما في ذلك من مجانبة للصواب. أما في المصادر

---

[1] المسعودي، مروج الذهب، تحقيق محيي الدين عبد الحميد، القاهرة 1965، ج1، ص 163 - البكري، م.س، ص 112- العذري، ترصيع الأخبار وتنويع الآثار، تحقيق عبد العزيز الأهواني، مدريد 1965، ص 118.

[2] اليعقوبي، كتاب البلدان، ط2، النجف 1917، ص 105 – المسعودي، م.س، ص 163 - ابراهيم القادري بوتشيش، علاقات المغاربة بالشعوب الإسكندنافية خلال القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، ضمن كتاب: حلقات مفقودة من تاريخ الحضارة في الغرب الإسلامي، دار الطليعة، بيروت 2006، ص 161 – 164.

الأوروبية فقد عرفوا باسم الفايكينج Vikings، وتعني القراصنة. وقد اشتهروا بمغامراتهم البحرية وبقوة شكيمتهم وخشونتهم الحربية حتى أنهم ((كانوا يغلبون كل من لقوه في البحر))[1]، وهي إشارة إلى قوة أسطولهم وتمرسهم في مجال القرصنة البحرية.

بدأ النورمان زحفهم نحو جنوب أوروبا فاستقروا منذ سنة 299هـ / 911م بشمال فرنسا حتى أن إحدى المقاطعات الفرنسية المعروفة بنورماندیا سمیت باسمهم. والراجح أنهم نبذوا الوثنية، واعتنقوا الديانة المسيحية[2]، ثم عبروا بعد ذلك نحو أنجلترا وأسسوا بها أسرة حاكمة، قبل أن يحطوا الرحال بإيرلاندا ويكتشفوا بعض الجزر القريبة منها.

وتشير المصادر العربية إلى الغارات التي شنّوها خلال فترات متلاحقة على سواحل الأندلس[3] وجنوب فرنسا. واستمروا في مسلسل غاراتهم، إلى أن انتهى بهم الأمر بالاستقرار في جنوب إيطاليا بعد

---

[1] نص أندلسي مجهول، نشره ليفي بروفنسال وغرسية غومز مع ترجمة إسبانية :
Una cronica de Abd al-Rahman al Nasir، مدريد 1950، ص 215.

[2] فيشر، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ترجمة محمد مصطفى زيادة والسيد الباز العريني، دار المعارف، القاهرة، (دون تاريخ)، ج1، ص 130، 135.

[3] ابن القوطية، تاريخ افتتاح الاندلس، تحقيق وتعليق عبد الله انيس الطباع، بيروت 1958، ص 88 - ابن عذاري، م.س، ج 2، ص 96 – 97.

حلف عقدوه في روما مع البابوية ضد الإمبراطوريتين البيزنطية والألمانية، ثم بدأ تحرشهم يشتد بعد ذلك بالمسلمين في صقلية[1].

وفي جنوب إيطاليا، اشتغلوا في بداية الأمر فرسانا مرتزقة في صفوف الجماعات المتحاربة لصالح أمير Salerno، وبدأت شهرتهم وبسالتهم الحربية تعلو في سماء إيطاليا عندما تمكن بعض الحجاج العائدين منهم عبر صقلية من رفع حصار كان يقوم به المسلمون لمدينة Salerno المذكورة، وذلك في سنة 410 هـ/ 1019م[2]. وبعد رجوعهم لمنطقة نورماندي التي كانوا يستقرون بها، أخبروا بني جلدتهم بمشاهد الفوضى والتفكك التي رأوها بإيطاليا، مما أغرى العديد منهم للتوجه نحوها، فبدأوا بالاشتغال كجند مرتزقة لدى أمير سالرنه وبقية المدن الإيطالية الأخرى، ونجحوا في تثبيت أقدامهم بجزيرة صقلية. ولا غرو فإن زعيمهم روبرت جيسكارد نجح حوالي سنة 452 هـ / 1060م في استخلاص بعض المقاطعات الإيطالية من البيزنطيين، ثم وجه أخاه رجار بعد ذلك لانتزاع صقلية من أيدي المسلمين[3].

---

[1] للمزيد من التفاصيل، أنظر : تقي الدين الدوري، (( سقوط صقلية في يد النورمان وانتهاء السيادة العربية ))، مجلة آداب المستنصرية، بغداد، عدد 8، 1984، ص 244 وما بعدها.

[2] Haskins, The Normans in European History, New York 1966, p 198.

[3] أمين توفيق الطيبي، دراسات وبحوث في تاريخ المغرب والأندلس، الدار العربية للكتاب، ليبيا- تونس 1984 ، ص 44. وللمزيد من التفاصيل، انظر: سعيد عبد الفتاح

وقد امتد حكمهم لصقلية إذا ما تجاوزنا اختلافات المؤرخين من سنة 484هـ /1091م إلى سنة 591 هـ/ 1194م، وهي مرحلة تداول خلالها الحكم أربعة ملوك نورمانيين سنحيل على أسمائهم في العديد من مواضع هذه الدراسة، لعلاقتهم بالأقلية الإسلامية بصقلية، وهم الكونت رجار الأول Roger I، وابنه رجار الثاني Roger II، ثم غليام الأول Guillaume I وغليام الثاني Guillaume II[1]، دون احتساب بعض الفترات الانتقالية التي كانت تحكم فيها أميرات كوصيات على العرش.

### 3- ظرفية سقوط صقلية في يد النورمان

تتعدد العوامل التي تفسر إقدام النورمان على احتلال جزيرة صقلية، وتتراوح ما بين الاقتصاد والسياسية والدين، فضلا عن العوامل البنيوية الداخلية، والوضعية الخارجية المتمثلة في الضعف الذي كان ينخر والعالم الإسلامي في نهاية القرن 4هـ / 10م وبداية القرن 5هـ / 11م، وكلها معطيات أدت إلى حتمية الاحتلال النورماني لصقلية.

---

عاشور، أوروبا في العصور الوسطى، مكتبة الأنجلو مصرية، ط6، القاهرة 1975، ص 315 – 316.

[1] امتدت فترة حكم رجار الأول ما بين 1091 إلى 1101 م، أعقبها فترة وصاية من زوجته إلى سنة 1111م، تولى بعدها رجار الثاني الحكم ما بين 1111و 1154م، بينما حكم غليام الأول من سنة 1154إلى 1166م، في حين امتدت فترة حكم غليام الثاني من1166 إلى 1198 م .

فصقلية بموقعها الاستراتيجي المتحكم في شرايين التجارة المتوسطية، وخصب أراضيها وثروتها المائية وغناها المنجمي كما سيق الذكر [1] أسالت لعاب النورمان، وهم الذين خبروا البحار وأدركوا أهميتها في التحولات الحضارية.

لقد أدرك الباحث تقي الدين الدوري ــ معتمدا في ذلك على المؤرخ الاقتصادي "هايد" ــ البعد الاقتصادي في الغزو النورماني لصقلية، فأشار إلى أهدافه ومراميه المتمثلة في السيطرة المسيحية على شرايين اقتصاد الجزيرة، وإشباع حاجتهم من منتوجاتها الطبيعية والمصنعة التي كانوا يفتقرون إليها كالسكر والملح والقطن والحرير [2]، ناهيك عن موقعها الاستراتيجي في التجارة المتوسطية، مما يؤكد أثر الاقتصاد في التحول التاريخي الذي كانت تشهده صقلية. وإذا كان التنافس الاقتصادي يأتي في المقام الأول كمفسر أساسي لهذا الغزو، فلا يمكن إنكار تزامنه مع بداية الحروب الصليبية، حيث كانت صقلية تشكل منطقة عبور لتسويق الفكر الصليبي من الغرب المسيحي نحو بلاد الشام. وكانت البابوية تضع أصبعها على صقلية ضمن خريطة طريق واسعة تمتد من الغرب إلى الشرق، وتعبئ الرأي العام

---

[1] يصف ياقوت الحموي الثروات الفلاحية والصناعية والمنجمية بنوع من التفاصيل. انظر كتابه : معجم البلدان، م.س، مجلد 3، ص 417 - 418

[2] سقوط صقلية.... ص 345، أما الدراسة التي اعتمد عليها فهي للمؤرخ هايد :
Heyd, Histoire du commerce du Levant au Moyen Age , Vol I, p 23

المسيحي فيها للمشاركة في دحـر المـسلمين وتبـارك انتـصارات النورمان على المسلمين، وهو ما جعل ابن الأثيـر يعتبـر احـتلال صقلية جزءا من هذا المشروع الصليبي الضخم[1]. بيد أن مؤرخنا لـم ينتبه إلى أن هذه الحروب التي شارك فيها الفقـراء والجـوعى مـن القارة الأوروبية، وشارك فيها الأمـراء الـصليبيون بهـدف بـسط سيطرتهم على طرق التجارة المتوسطية، تجعل الاحتلال النورمـاني لصقلية حربا اقتصادية مغلفة بغلاف ديني.

ويتأكد ما نذهب إليه إذا علمنا أن رجار الأول لم يـساهم فـي الحملة الصليبية الأولى رغم إلحاح البابوية، لأنه كان يرى فـي دول العالم الإسلامي خصوصا تلك المحاذية لـصقلية، شـريكا اقتـصاديا ينبغي التعامل معه على أسـاس سياسـة سـلمية، تخـدم مـشاريعه الاقتصادية، وهو ما يفسر إقدامه على عقد معاهدة سلمية مـع اميـر المهدية المعز بن تميم مباشرة بعد استيلائه على بـاليرمو[2]، إذ ادرك بحسه الاقتصادي أن بلاد المسلمين في الساحل الإفريقي تشكل زبونا أساسيا من زبائن مادة القمح الصقلي، مقابل ما تحتاجه بلاده من مواد خام من هذه المنطقة، وبذلك رأى ان خدمة مصالح بلده أولـى مـن خدمة مصلحة المشروع الصليبي.

---

[1] ابن الأثير، م.س، ج8، ص 158

[2] Smith, Medieval Sicily, London 1969, p15.

أما أثر الظرفية السياسية والبنية الداخلية في الاحتلال النورماني لصقلية فيمكن تفسيره من خلال مؤشرين هامين، يتجليان في ضعف الجبهة الداخلية الإسلامية بصقلية، ثم الخيانة وممالأة العدو، أو ما تسميته المصادر ((بالانتصار للكفار))[1].

فعلى مستوى المشهد الداخلي، ورغم الاستقرار الظاهري الذي عرفته جزيرة صقلية طيلة الحكم الإسلامي ابتداء من سنة 212 هـ / 827 م، فإن عوامل الضعف والصراعات كانت تنخر الكيان الإسلامي هناك. فالصراع الإثني والطائفي كان على أشده، وهو ما عبّر المؤرخ ابن أبي دينار ب ((التحاسد والفتن))، واستغله "أرشيبالد لويس" لتفسير ضعف صقلية وسقوطها بسبب احتدام الخلافات بين العرب والبربر[2]. وفي سرده لأحداث سنة 484هـ عاد ابن الأثير إلى ماضي النزاعات التي نشبت منذ سنة 405هـ/ 1014م بين أمراء صقلية علي بن ثقة الدولة وأخيه جعفر تاج الدولة. كما أشار إلى ثورة أهالي صقلية ضد هذا الأخير وإقدامهم على عزله، فضلا عن أحداث أخرى خطيرة عصفت بوحدة الجزيرة[3]، وجعلتها كيانا مهترئا

---

[1] تقي الدين الدوري، م.س، 345

[2] أرشيبالد لويس، القوى البحرية التجارية في حوض البحر المتوسط ( 500- 1100م)، ترجمة أحمد محمد عيسى، مراجعة وتقديم محمد شفيق غربال، طبعة مصر ( د.ت )، ص 373.

[3] ابن الأثير، م.س، ج8، ص 157- 158.

ومقسما إلى ولايات حكمها أمراء مستقلون، حتى أن البعض شبه هذه الوضعية بوضعية ملوك الطوائف في الأندلس[1].

ولم يجد أمراء صقلية يدا تمتد لنجدتهم كما امتدت أيادي المرابطين لأمراء الطوائف بالأندلس، فالقاهرة التي كانت غارقة في مشاكلها الداخلية منذ عهد المستنصر بالله (427-478 هـ/ 1053-1091م)، عجزت عن تقديم أي مساعدة عسكرية لأهالي صقلية المسلمين الذين بدأوا يتلقون الضربات الأولى ابتداء من سنة 452 هـ/ 1060م من طرف النورمان. ولم يكن بنو زيري بإفريقية في وضع يحسد عليه، بسبب خلافاتهم مع بني حماد واجتياح قبائل بني هلال لأراضيهم[2]. ناهيك عن الانحطاط الاقتصادي الذي كان ينخر الإمارة الزيرية في تلك المرحلة بسبب تحول الطرق التجارية الصحراوية نحو المغرب الأقصى بعد تكوّن دولة المرابطين المنشغلة بدورها في حروبها ضد القوى المسيحية في الأندلس. وهكذا كانت القوى الإسلامية في الغرب الإسلامي في تلك اللحظة التاريخية الحرجة أحوج ما تكون إلى التأمل والتفكر في أحوالها الداخلية، وإعادة تدبير استراتيجية الدفاع عن النفس، تاركة صقلية لمصيرها

---

[1] أمين توفيق الطيبي، م.س، ص 44.
[2] ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، دار الكتب العلمية، بيروت 1992، ج6، ص 17- 19

المحتوم[1]، وإن لم يحل ذلك دون بذل بعض المحاولات لإنقاذ ما يمكن إنقاذه.

وفي هذا الوقت بالذات بدا التفوق الأوروبي واضح المعالم، إذ ظهرت القوة الاقتصادية لكل من جنوة وبيزة والبندقية، وهي القوى الجديدة التي أصبحت تحتكر التجارة المتوسطية[2].

ولم يغب عن ابن خلدون – وهو المؤرخ المتمرس في التحليل والتفسير – هذا الضعف الذي أصبح ينخر الغرب الإسلامي، والذي كان سببا من أسباب احتلال صقلية، حيث عبّر عن ذلك بقوله: ((حتى إذا أدرك الدولة العبيدية (الفاطمية) والأموية (بالأندلس) الفشل والوهن، وطرقهما الاعتلال، مدّ النصارى أيديهم إلى جزائر البحر الشرقية مثل صقلية واقريطش ومالطة وملكوها))[3]، مما يعني أن صقلية أصبحت تعيش بسبب ضعف الدول الإسلامية بالغرب الإسلامي وانشغالها في مشاكلها الداخلية عزلة أمنية، وهو ما عبّر عنه أيضا ابن الخطيب أصدق تعبير حين قال: ((ثم تداول ولاية صقلية أمراء من هذا البيت (الكلبي) إلى أن انقطع عنهم إمداد

---

[1] ارشيبالد لويس، م.س، ص 373.

[2] Goitein, Medieval Tunisia The Hub of the Mediterranean, Studis in Islamica History and Institutions, Leiden 1966, p318.

[3] ابن خلدون، المقدمة، تحقيق عبد الواحد وافي، مطبعة لجنة البيان العربي 1952، ج2، ص 630.

المسلمين لانشغال كل جهة بما يخصها من الفتن، فكان استخلاص العدو لها في سنة خمسة وثمانين وأربعمائة))[1].

ومن جهتها، ساهمت البابوية في تكريس هذه العزلة الأمنية لصقلية عندما حرض البابا بندكتو الثامن على طرد مجاهد العامري من الجزر المتوسطية التي كان يبسط نفوذه عليها. ومن غير المستبعد أن تكون المصلحة الاقتصادية قد وحدت كلا من بيزا وجنوة رغم عداوتهما لمقاومة الأمير الأندلسي المذكور. كما أن استجابتهما لأوامر البابا جاء نتيجة حرصهما على مصالحهما التجارية. لذلك استأسدت الدولتان معا ضد مجاهد العامري حتى تمكنتا من انتزاع سردينية منه سنة 407 هـ / 1016 م، وهكذا – يقول أحد الباحثين- ((يكون لعمل كل من بيزا وجنوة أثر في تأمين جبهة الأندلس من أي احتمال لمساعدة أندلسية لصقلية العربية))[2]. واستغلت هذه الوضعية، حيث سعى البابا نقولا الثاني إلى توسيع الحكم النورماني بإيطاليا في اتجاه صقلية، وهو أمر لا يدعو إلى الغرابة إذا علمنا أن اللحظات الأخيرة من سقوط صقلية تزامن مع بداية الحروب الصليبية.

حدث هذا في وقت كان النورمان يسيرون في خط تصاعدي لبناء قوة متماسكة تؤطرها حياة الفروسية. وإذا كانت أراضي صقلية

---

[1] ابن الخطيب، م.س، ص 129.
[2] تقي الدين الدوري، م. س، ص 353

قد أسالت لعابهم، فإنهم وجدوا في المسلمين قوة يمكن أن تزاحمهم للاستفراد بخيراتها وممتلكاتها، ناهيك عما تضمن لهم من مداخيل التجارة المتوسطية.

ويغلب على الظن أن انقسامات أمراء صقلية لم تغب عنهم وهم يخططون استراتيجية الاحتلال، فوجدوا في الصراعات البينية التي شجرت بين الأمراء المسلمين مدخلا لتنفيذ مشروعهم الاحتلالي، خاصة محمد بن إبراهيم صاحب سرقوسة والمعروف في المصادر باسم ابن الثمنة، وعلي بن نعمة صاحب قصريانة وجرجنت، وكان يعرف باسم ابن الحواس. وهو ما سماه أحد الباحثين ((بالحرب الأخوية والخيانة))[1].

أسفر هذا المشهد الانقسامي المشار إليه عن تغيّر في القيم السلوكية، حيث آثر بعض أقطاب المشهد السياسي العربي في صقلية نهج مسلك الخيانة في وضح النهار من أجل الحفاظ على مصالحهم الشخصية. ويبرز في هذا الصدد الدور الخياني الذي قام به ابن الثمنة حاكم سرقوسة عندما استدعى رجار لمساعدته مقابل تسليم صقلية

---

[1] احمد توفيق المدني، المسلمون في جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا، الجزائر 1365 هـ، ص 156.

المصادر العربية تفاصيل الصفقة التي تمت هدية له[1]. ولم تكشف المصادر العربية تفاصيل الصفقة التي تمت بموجب هذه الاتفاقية الخيانية، إلا أنها فسرت أسبابها رغم حصرها لتلك الأسباب في خلاف عائلي تافه وقع لابن الثمنة مع صهره ابن الحواس، وهو ما حدا به إلى تجهيز حملة عسكرية ضد صهره، إلا أنه مني بهزيمة أدت به إلى الاستنجاد برجار الذي كان آنذاك بمدينة مليطو بقلورية في جنوب إيطاليا[2]، فمناه ودلّه على عورات المسلمين ونقط ضعفهم. وحين تأكد للزعيم النورماني ولاءه، هاجم مدينة مسينة بقوة ضاربة مكنته من الاستيلاء عليها سنة 453 هـ /1061م. وتوقف الزحف النورماني مؤقتا بسبب وفاة ابن الثمنة في السنة الموالية، وكذلك بسبب اختلاف رجار مع أخيه روبرت جيسكارد. لكن توافقهما بعد ذلك جعلهما يستأنفان مشروعهما لاحتلال صقلية. وبموجب الاتفاق الذي تمّ بينهما، كلّف روبرت بمهمة مواصلة حروبه ضد البيزنطيين، بينما أسندت لرجار مهمة تجنيد

---

[1] النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق حسين نصار، إصدارات المجلس الأعلى للثقافة والهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة 1983، ج 24، ص 381 – أحمد توفيق المدني، م.س، ص 156.

[2] ابن خلدون، كتاب العبر، دار الكتب العلمية، بيروت 1979، المجلد 4 ، ص 210-211 - تقي الدين الدوري، م.س، ص 356- 357

سعيه لاحتلال صقلية، لذلك انصبّ اهتمامه على الاستيلاء على مدينة باليرمو، ولكنه فشل في ذلك[1].

بيد أن هذا الفشل العابر لم يثن عزيمة النورمان عن مواصلة سعيهم لانتزاع صقلية من المسلمين. ومقابل ذلك امتدت أيدي هؤلاء إلى الاستصراخ بالمعز بن باديس حاكم إفريقية (تونس)، فأمدهم بأسطول ضخم، لكن حظه التعس أبى إلا أن تصير معظم قطعه طعما لأمواج البحر. وعندما تربع على عرش افريقية ابنه تميم بن المعز، سعى إلى تقديم مساعدة بحرية لمسلمي صقلية، فجهز أسطولا جعل على قيادته ابنيه علي وأيوب، فنزل هذا الأخير في باليرمو، بينما توجه أخوه إلى جرجنت، واستطاع فيها أن يكسب حب أهل هذه المدينة، مما أثار غيرة حاكمها ابن الحواس، فأعلن الحرب ضده، لكنه هزم وقتل على إثر ذلك، ثم حدثت بعد ذلك فتنة بين أهل جرجنت وعبيد تميم، أعقبهما عودة الأخوين علي وأيوب ابنا تميم إلى افريقية، وانسحابهما نهائيا من صقلية[2]، ((فملك حينئذ الفرنج أكثر البلاد على مهل وتؤدة لا يمنعهم أحد))[3].

---

[1] Curtis ,(Edmund), Roger of Sicily and Normans in Lower Italy, New York and London 1912 , p66

[2] إحسان عباس، العرب في صقلية، دراسة في التاريخ والأدب، دار الثقافة، بيروت 1975 (ط2)، ص 130.

[3] ابن الأثير، م، س، ج8، ص 158 – النويري، م.س، ج 24، ص 382

وإذا كانت المصادر العربية تلوذ بالصمت حول أسباب رجوع الأخوين، أو تسرد الحدث كأمر عارض، فإن المصادر المسيحية تذكر أنهما منيا بهزيمة ماحقة في موضع يسمى Misilmeri، مما أجبرهما على الانسحاب والتراجع نحو افريقية. وبهذه الهزيمة اهتز الوجود العربي في صقلية، واشتد عود النورمان، وارتفعت معنوياتهم، خاصة بعد أن تلقوا مساعدة عسكرية من بيزا Pisa، فصمموا آنذاك على احتلال باليرمو.

## 4- سقوط العاصمة باليرمو ونهاية المقاومة الإسلامية في صقلية:

لن يهتم الباحث بتفاصيل المعارك التي تأججت شرارتها بين مسلمي صقلية والنورمان، إذ أن المصادر تعج بذكر تلك الأحداث العسكرية، لكن ما يهمنا في سياق هذه الدراسة، هو بيان مقولة "تغير الزمن التاريخي" الوارد في عنوان هذا المبحث. إذ أشّرت عقارب الزمن إلى انتهاء مرحلة وبداية مرحلة جديدة عكسية، وانتقال من وضع إلى وضع جديد سيكون له انعكاس قوي في الأقلية الإسلامية في صقلية، لذلك سنقتصر على وضع اليد على أهم الأحداث العسكرية المرتبطة بهذه النقلة التاريخية.

تضطرب المصادر في تحديد السنة التي بدأ فيها أول هجوم نورماني على صقلية. ويلاحظ الباحث تناقضا في هذا الصدد بين المصادر العربية والمسيحية من جهة، وبين المصادر العربية نفسها. وتتراوح تلك التواريخ بين سنوات 452 و453 هـ و455 هـ.

ويعزى سبب هذا الاضطراب في الروايات إلى أن أول هجوم لم يحدث بعد التجاء ابن الثمنة إلى رجار لمساعدته كما ورد عند ابن الأثير وغيره من المؤرخين المسلمين، بل بدأ قبل ذلك من خلال مؤامرة سرية نسج خيوطها بعض أعيان نصارى مدينة مسينة مع البابا، حيث فاتحوه باستقدام رجار إلى صقلية، فوافق البابا على هذه الخطة السرية، وبادر رجار بالهجوم على المدينة المذكورة سنة 452هـ / 1060م، لكنه فشل بسبب ضراوة المقاومة الإسلامية، مما أدى إلى تراجعه، خاصة بعد ظهور أطماع بعض أمراء النورمان الخارجين على سلطة أخيه روبرت جسكارد. وتزامن التجاء ابن الثمنة إلى رجار بعد هدوء هذه العاصفة وبداية تفكير الأخوين في مواصلة الحرب في صقلية. لذلك يمكن اعتبار أن الخلط الذي وقع في المتون المصدرية عربية ومسيحية، كنتيجة لتشابك هذه الأحداث[1].

ونظرا للأهمية الاستراتيجية لمدينة باليرمو كقاعدة لجزيرة صقلية، فقد أعدّ النورمان خطة عسكرية محكمة تعتمد على الحصار البري والبحري؛ ولا غرو فقد جمع روبرت جسكارد خمسين سفينة وتقدم بها بحرا، بينما حاصرها رجار برّا بجيش قوامه ثمانية عشر ألفا. وبقيت المدينة تقاوم طيلة خمسة أشهر حتى فنيت المؤن، وعمّت المجاعة، وبدأت الأوبئة تنتشر بسبب كثرة الجثث التي تركت دون

---

[1] تقي الدين الدوري، م.س، ص 359.

دفن، ووصل الإرهاق بالسكان إلى ذروته، مما كسّر ثباتهم، فدخلها النورمان بعد مفاوضات مع الأهالي في 15 من ربيع الثاني من سنة 464 هـ/10 يناير 1072م، وأعطى روبرت جيسكارد الأمان لهم.

وبعد سقوط باليرمو، بدأت المدن الأخرى تتساقط تباعا في أيديهم مثل مازر وقطانية وغيرها، ولم يبق سوى بعض الجيوب القليلة من المقاومة الإسلامية[1].

تمثلت تلك الجيوب المقاومة في مدينة سرقوسة التي خاضت مواجهات باسلة قضت مضجع النورمانيين، إلا أن رجار تمكن من حسم الموقف في معركة بحرية قوية تمكن خلالها من إطفاء جمرة المقاومين واحتلال المدينة سنة 478 هـ / 1085م[2].

وتبع سقوط سرقوسة، انهيار المقاومة في باقي المدن المتبقية مثل قصريانة وجرجنت التي ضيق النورمان عليهما بالحصار والتجويع وقطع المؤن والإمدادات، حتى اضطر سكان المدينتين تحت قسوة الحصار إلى الاستسلام في حدود سنة 484 ه /1091م[3].

وبهذا المسار الذي سارت على هديه عملية الاحتلال، يكون غزو النورمانيين لصقلية قد استغرق 31 سنة (453- 484 هـ /1061 - 1091)، ابتداء من أول هجوم شنّوه عليها، إلى أن تمكنوا من

---

[1] إحسان عباس، م، س، ص 131.
[2] المرجع نفسه، ص 132.
[3] النويري، م.س، ج 24، ص 383 - أمين توفيق الطيبي، م.س، ص 46.

السيطرة النهائية على الجزيرة، مما ينهض قرينة على أن الاحـــتلال النورماني لم يكن بالأمر الهيّن، وأن قلاع الصمود اســتمرت لفتـــرة تناهز ثلث قرن قبل أن تستسلم لقدر الاحتلال، مسجلة بـــذل خاتمـــة تبقى راسخة في ذاكرة الصقليين ((كلها عزة وشرف وافتخار)) علـــى حد قول احد الباحثين[1].

وبعد تمهيد صقلية، اقتسم الأخوان روبرت جيسكارد، ورجـــار الجزيرة بينهما، ولقب روبرت أخاه "قومس" صقلية، لكن ما لبـــث أن تعززت مكانة رجار في الجزيرة بعد وفاة أخيه[2]، مما شـــجعه علـــى مواصلة ما تبقى من مشروعه الاحتلالي حتى سنة 484هـــ / 1091م.

بديهي أن يخلّف سقوط صقلية في يد النورمـــان نتـــائج بعيـــدة الغور، يهمنا منها نتيجتان أثرتا بشكل عميق في وضـــعية المـــسلمين بصقلية، وتتجليان على الخصوص في ضياع السيادة الإسلامية علـــى البحر المتوسط – أسطولا وتجارة– ثـــم تغيـــر الخريطـــة البـــشرية لصقلية، وتحول المسلمين فيها من أكثرية سكانية كانت تتفوق عـــددا وعدة على الأجناس المستوطنة لصقلية وتفرض نمطهـــا الحـــضاري على الجزيرة برَمتها، إلى أقلية لا تطمح أكثر من الحفاظ على هويتها

---

[1] أحمد توفيق المدني، م.س، ص 163

[2] ابن الأثير، م.س ، ص 158 - 159.

بعدما انهزمت عسكريا، فأخذت تفرغ طاقتها البشرية الذاتية عن طريق الهجرات المتتالية والالتجاء نحو "دار الإسلام"، حتى انخفض حجمها الديموغرافي، فأصبحت أقلية من بين العناصر البشرية المشكلة لجزيرة صقلية. فكيف كانت وضعية الأقلية الإسلامية في صقلية طيلة فترة الاحتلال النورماني التي امتدت من سنة 484هـ /1091م إلى سنة 591 هـ/ 1194م؟

ذلك ما سنحاول الإجابة عنه في المباحث التالية.

المبحث الثاني:

# الأقلية الإسلامية
## بين صدمة المجتمع النورماني الجديد
## وثقل الموروث الحضاري الإسلامي

عرف المجتمع الصقلي بعد سيطرة النورمان تحولا عميقا تمخضت عنه نتائج بعيدة الغور على الأقلية الإسلامية التي وجدت نفسها جزءا من هذا التحول، بل صارت أكبر ضحايا هذا الانتقال التاريخي. فبعد أن كان المسلمون هم الأسياد والحكام الذين يفرضون سلطتهم وقوانينهم على غيرهم من الأجناس، وجدوا أنفسهم بعد الغزو النورماني لصقلية في مشهد سياسي مغاير للمشهد الذي ألفوه، وفئة محكومة لا تقف على قدم المساواة في مجال حقوق المواطنة مع الأجناس الأخرى المقيمة في جزيرة صقلية. فما هي هذه التحولات؟ وكيف تعاملت الأقلية الإسلامية مع المعطيات الجديدة والظرفية الطارئة؟

## 1- الأقلية الإسلامية وجها لوجه أمام مجتمع جديد:

بعد أن ثبّت النورمان أقدامهم في صقلية، تغيرت كل المعطيات، فتحولت الأقلية الإسلامية من موقع الحاكم إلى موقع المحكوم، وعاشت في مناخ طرأت عليه متغيرات جديدة من جراء تغير معادلات موازين القوى في العالم المتوسطي، ونتيجة لإعادة هيكلة الاقتصاد الصقلي، وبروز مجتمع جديد يختلف عن المجتمع الذي ألفته وعايشته طيلة مرحلة تاريخية تتجاوز القرنين والنصف،

وهو ما أسفر عن تحولات عميقة في أوضاعها الاقتصادية والاجتماعية، وفي هويتها التي تعرضت لمحاولات الطمس والتدمير، وشخصيتها التي أصبحت تتميز بالازدواجية، وصارت عاجزة عن التعبير عن ذاتها، وعن مقوماتها الثقافية وقيمها الاجتماعية. كما تعرضت نفسيتها لهزة قوية نتيجة شعورها بالغربة والقلق من المصير المجهول، رغم اندماجها ومساهمتها في تنمية المجتمع الصقلي الجديد.

فعلى مستوى التحولات الاقتصادية، دخل المجتمع الصقلي مرحلة جديدة أصبح فيها مجتمعا إقطاعيا تهيمن فيه ((فيودالية أجنبية ذات نزعة استعمارية)) على حد تعبير أحد الباحثين[1]، مشكّلة بذلك قطيعة مع البنية الاقتصادية السائدة في الحقبة الإسلامية، مما جعل المسلمين يفقدون أراضيهم، ويعيشون في بيئة اقتصادية غريبة عن تلك التي ألفوها، ويخضعون لعلاقات فيودالية بشكل لم يعهدوه من قبل، مما شكل صدمة جديدة لهم تجاه هذا المجتمع الفيودالي الجديد.

وعلى صعيد التحولات الاجتماعية، أصبح مسلمو صقلية يشكلون في المجتمع الإقطاعي الجديد أقلية يمارس عليها الاضطهاد، وتحرم من بعض حرياتها السياسية أحيانا كما سيأتي ذكره في

---

[1] محمد حسن، الجغرافية التاريخية لإفريقية من القرن الأول إلى القرن التاسع، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت – بنغازي 2003، ص 189.

موضعه. فرغم أنها كانت تمثل الأكثرية العددية في الحقبة الإسلامية، فإنها على مستوى ممارسات الحقوق أصبحت كغيرها من الأقليات تسعى للحفاظ على كيانها الاجتماعي من خلال التمسح بأذيال السلطة الجديدة، والتزلف إليها قصد الحصول على الحماية والسلم الاجتماعي[1]، بينما تغيرت بنيتها الاجتماعية وأصبح معظم الفلاحين وسكان الأرياف في عداد الأقنان والأرقاء، يحتلون المراتب الأدنى في سلم الهرم الاجتماعي بعد أن كانوا يتصدرونه من قبل.

أما على المستوى الديني، فقد تغيرت البيئة الدينية رأسا على عقب، فبعد أن كانت صقلية جزءا من "دار الإسلام"، تحولت إلى جزء من "دار الكفر"، حسب تعبير أدبيات الفقه الإسلامي. وفي ظل هذا التحول، سيعرف المجتمع الصقلي الجديد تحت السيادة النورمانية محاولات لطمس الهوية الدينية لبعض الجماعات الإسلامية الضعيفة الإيمان، إذ اضطر بعض هؤلاء بسبب إخفاق مصالحهم الدنيوية أو من أجل قضاء مآربهم أو تخوفا من الاضطهاد إلى تغيير دينهم[2]، بينما بقيت الجماعة المتمسكة بدينها تعيش ازدواجية في الهوية، واضطرابا في الشخصية كما هو حال الفتيان والموظفين في قصر

---

[1] إحسان عباس، العرب في صقلية ، ص175.

[2] نفسه، ص276.

غليام الثاني، أو حالة النخبة العالمة التي عاشت في كنف الأسياد الجدد على أسلوب المداراة والنفاق الاجتماعي.

وعلى الصعيد التشريعي، فإن الأقلية الإسلامية أصبحت تعيش في مجتمع بعيد عن التشريع الإسلامي، مع افتقار كبير إلى فقه نظري وتطبيقي بسبب غياب فقهاء يصوغون حياتها وسط أكثرية مسيحية. وحسبنا أن جلّ الفقهاء كالمازري وغيره، كانوا قد تركوا صقلية على إثر الغزو النورماني، مما جعل مسلمي الجزيرة يعيشون اغترابا تشريعيا وثقافيا واضحا، فلا فقهاء يلجأون إليهم لطرح ما يشكل عليهم في حياتهم من قضايا متجددة فرضها تواجدهم في " دار الحرب"، و لا قضاة مستقلين يعينونهم بأنفسهم، بل إن قاضيهم وصاحب أحكامهم كان يعين من طرف صاحب صقلية[1]، في الوقت الذي ظلت معظم قياداتهم تأتمر بأوامره ، وبذلك شكلوا جماعة منعزلة عن بيئتها الإسلامية وسط أمواج بشرية من الأجناس المتعددة التي دخلت صقلية. حدث هذا في وقت اشتد فيه عود الروح الصليبية، وتسيّد فيه التعصب الديني بين "دار الإسلام" و"دار الحرب"، وانتصب العداء السياسي المقيت بين الجانبين.

---

[1] الونشريسي، المعيار المعرب، تخريج مجموعة من الباحثين، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، بيروت 1981، دار الغرب الإسلامي، ج10 ، ص 107.

إلى جانب هذه الصورة التي تعكس اغتراب الأقلية الإسلامية ومحاولة " تمسيح " المجتمع الصقلي، ثمة صورة أخرى تقدمها الشواهد التاريخية، وتدل على أن الموروث الحضاري الإسلامي بصقلية ظل يخيم بظلاله على المجتمع الصقلي الجديد، وأن " أسلمته " ظلت حاضرة بقوة في بنيات الدولة الجديدة، رغم التحولات الثقافية والسياسية الطارئة.

**2- صمود الموروث الحضاري العربي في المجتمع الصقلي الجديد.**

على الرغم من أن هذا المجتمع صار خلال العصر النورماني مجتمعا فيوداليا، وشكل بنمطه الاقتصادي الجديد صدمة مفاجئة للمسلمين، فإن الموروث الثقافي الإسلامي الذي ظل يمارس تأثيره بصقلية ما يربو عن قرنين ونصف، ترك بصماته الواضحة على المجتمع الصقلي في زيه الجديد رغم أفول السلطة الإسلامية عن الواجهة السياسية، لذلك شكل هذا المناخ هامشا استغله المسلمون للاندماج والتأقلم مع الواقع الجديد.

ومما زاد من إيجابيات هذه المعطيات، نهج معظم ملوك النورمان سياسة توافقية تقوم على التوازن السياسي، وتسعى إلى تأسيس السلم الاجتماعي كما سيأتي ذكره في المباحث القادمة.

من جهة أخرى لم يشكل هؤلاء السادة الجدد أي عقبة في وجه قيام حوار بين الحضارتين الإسلامية والمسيحية وبقية الحضارات الأخرى بصقلية، حتى أن باحثا خرج باستنتاج مفاده أنه ((لم يحدث

في أي مكان أن قامت الحضارات العربية واليونانية واللاتينية جنبا إلى جنب في سلم وتسامح كما كان الحال في صقلية)). والأمر يعزى في نظرنا إلى أن الملوك النورمان لم يكونوا برابرة متعصبين كما يفهم البعض، بل ضربوا بسهم وافر في مجال الثقافة، وحسبنا أن رجار الثاني كان عالما في الرياضيات والحساب، ومخترعا من الطراز الرفيع حيث ((اخترع من المخترعات العجيبة وابتدع من الابتداعات الغريبة ما لم يسبقه احد من الملوك))[1].

وفي ذات الوقت، تميزوا بعقلية منفتحة، لا ترى حرجا في التعامل مع الآخر، خاصة أن الحضارة الإسلامية أسرتهم بسحر ثقافتها، لذلك لا غرابة أن يشيد المؤرخون المسلمون بهذا الانجذاب النورماني للثقافة الإسلامية، وهو ما عبّر عنه أحد المؤرخين في سياق حديثه عن رجار الثاني حين وصفه بأنه ((سلك طريق ملوك المسلمين من الجنائب والسلاحية والجنادرية...وجعل له ديوان المظالم))[2]. ولعل هذا التقليد العربي ما حدا بدي سلان Deslane إلى التنويه بأن كل شيء في بلاط هذا الملك أصبح ينطق بلغة الحضارة

---

[1] الإدريسي، نزهة المشتاق، منشورات المعهد الجامعي الشرقي بنابولي، تحقيق مجموعة من الباحثين، (ط2)، نابولي – روما ، (دون تاريخ )، ج1، ص 5.

[2] ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج8، ص159. والجنائب هي الخيول التي تسير وراء السلطان في الحروب لاحتمال الحاجة إليها. أما السلاحية فهم الرجال الذين يحملون سلاح الأمير أو السلطان. بينما المقصود بالجنادرية، مفردها جناندار الشخص الذي يتم استئذانه للدخول على الأمراء في أيام المواكب عند جلوسه بدار العدل.

الشرقية وعاداتها وتقاليدها بدءا بلباس الحاكم على مراسيم الاستقبالات والتشريفات وغيرها من البروتوكولات[1].

نفس الحكم ينسحب على غليام الثاني الذي ((تشبه بالعرب في الانغماس في نعيم الملك وترتيب قوانينه وتقسيم مراتب رجاله وتفخيم أبهة الملك وإظهار زينته بملوك المسلمين...ومن عجيب شأنه المتحدث به أنه يقرأ ويكتب بالعربية وعلامته الحمد لله حق حمده وكانت علامة أبيه: الحمد لله شكرا لأنعمه))[2].

وظلت اللغة العربية – طيلة العصر النورماني – من اللغات الأساسية الثلاث التي كانت تستعمل في الإدارة، فضلا عن كونها لغة التخاطب المتداولة في الحياة اليومية، إذ كان يتحدث بها الإغريقيون المستقرون في صقلية أيضا[3]، بل كان الملك غليام الأول نفسه يتحدث بها بطلاقة.

وبالمثل احترمت السلطات الجديدة الرصيد المتراكم من حضارة المسلمين، فحافظت على العملة النقدية الإسلامية، وحسبنا أن رجار الأول سك عملة كتب على إحدى واجهتيها عبارة ((لا إله إلا

---

[1] ورد الاستشهاد بهذا النص عند حسن حسني عبد الوهاب، ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية، مكتبة المنار، تونس1972، ج2، ص 461.

[2] ابن جبير، رحلة، ص267- 268.

[3] نفسه، انظر روايته حول مستخلف المدينة الذي كان يتحدث عربية لينة ص272، وانظر أيضا روايته حول استعمال الإغريقيين القاطنين بصقلية اللغة العربية أيضا في ص 278.

الله محمد رسول الله)). وسواء كان الهدف من هـذه المبـادرة هـو ملاطفة عواطف المسلمين المغلوبين بتثبيت عبارة تعد رمز عـزتهم وعماد دينهم كما يذهب إلى ذلك بعض البـاحثين [1]، أم أنهـا كانـت تعكس تسامحا حقيقيا مع مخلفات التراث الإسلامي في صقلية، فـإن الأقلية الإسلامية اعتبرت هذه الخطوة دعما معنويـا لمكانتهـا بـين الأجناس المكونة للمجتمع الصقلي، وحضورا عربيا فرض نفسه رغم رياح التغيير التي أحدثها الغزو النورماني لصقلية ومـا تـلاه مـن انقلاب في وضعية المسلمين بها.

بيد أن المبادرة النورمانية في الإبقاء على النظم الإسلامية لـم تكن في نظرنا تستهدف إرضاء الأقلية الإسلامية بقـدر مـا كانـت ضرورة تاريخية لا يمكن أن تتنكر لموروث حـضاري قـام علـى أساسه المجتمع الصقلي وساهم في بنائه التاريخي. ولو كـان الأمـر يتعلق بمجرد ملاطفة عواطف المسلمين في بدايـة الحكـم الجديـد لتغيرت العملة الإسلامية وكل الموروث الحضاري الإسلامي. والحال أن مظاهر الحضارة الإسلامية استمرت بإشـعاعها وبريقهـا خـلال العصر النورماني برمته، فرجار الثاني سك بدوره نقودا ذهبية علـى

---

[1] علي الزهرانـي، (( الوجـود الإسـلامي فـي صـقلية فـي عهـد النورمـان بـين التـسامح والاضطهاد 444 – 591هـ / 1052 – 1194م )) ، بحث نشر في الموقع الإلكتروني: http://islamport.com/d/3/amm/1/259/3754.html

الطريقة الإسلامية، وكتب فيها العبارات الإسلامية، وتلقب فيها بالمعتز بالله[1]. كما ضرب غليام الأول نقودا عربية لقب نفسه فيها ((بالهادي بالله))[2]. وعلى العموم فقد ظلت العملة الإسلامية المعروفة بالرباعي الطري هي العملة المتداولة في صقلية وجنوب إيطاليا طوال العصر النورماني، وكانت تكتب بالخط الكوفي، ويحمل بعضها التاريخ الهجري وعبارة محمد رسول الله[3].

واحتفظ النورمان للأقلية الإسلامية بنظامهم الإداري، إذ كان يحكمهم القائد وهيئة الأفاضل التي تشبه السلطة البلدية، وأبقوا على دواوينهم الخاصة بشؤون التجارة والزراعة مثل نظام الضرائب والخراج وديوان التحقيق الذي يعني بشؤون المال، وديوان المظالم الذي يراقب تصرفات الحكام، فضلا عن ديوان الطراز لصناعة الملابس[4].

أما عن علاقة الأقلية الإسلامية بالسلطة الجديدة، فإنها- مع وجود حالات سنأتي على ذكرها لاحقا – اتسمت بكثير من التسامح والتقرب من المسلمين، وهو ما تعكسه الكتابات الإسلامية والمسيحية

---

[1] ابن الأثير، م، س، ج8، ص159 - حسني عبد الوهاب، ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية، تونس 1965،ج1، ص451.

[2] المرجع نفسه، ج1، ص101.

[3] Smith , Medieval Sicily, p17.

[4] عبد المنعم ماجد، العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، مكتبة الجامعة العربية، بيروت 1966، ص127-128.

على السواء ؛ فالإدريسي الذي لم يكن إعجابه بحكام صقلية، وتسبيحه بحمدهم موضع شك، يؤكد أن رجار الأول نشر العدل في صقلية، وأقر الأجناس على شرائعها. كما أن رجار الثاني لم يدر ظهره للحضارة الإسلامية : ففي الوقت الذي ارتدى الطراز البيزنطي، لبس أيضا العباءة العربية الموشحة بالكتابة الكوفية[1]، ((وكأنه أراد بذلك إقامة التوازن حتى في العادات والتقاليد بين عناصر شعبه الإسلامي والمسيحي)) على حد تعبير أحد الباحثين[2]. ولم يكتف بذلك، بل ((أكرم المسلمين وقربهم ومنع عنهم الإفرنج فأحبوه))[3]، واستخدم الأسلوب الإسلامي في بلاطه حتى أنه صار بلاطا شرقيا أكثر منه غربيا في إدارته ونظمه.

والغالب على الظن أن هذا الحب نابع من الحماية التي كان يوفرها الملك الصقلي للأقلية الإسلامية، والحيلولة دون تعصب الأجناس الأخرى التي كانت تتربص بها الدوائر، لذلك لا غرابة أن ينعكس هذا الحب المبني على مبدأ الحماية في خروج النساء المسلمات عند وفاة غليام الأول وهن يلبسهن الثياب الخشنة وينشرن شعورهن ويملأن الفضاء ببكائهن وعويلهن، ويرددن المراثي الشجية

---

[1] فيليب حتي، تاريخ العرب العام، ط7، دار إحياء العلوم، بيروت 1986، ص 694.

[2] حسان حلاق، العلاقات الحضارية بين الشرق والغرب في العصور الوسطى : الأندلس صقلية الشام، الدار الجامعية، بيروت، 1986، ص 124.

[3] ابن الأثير، م.س، ج8، ص159.

على نغمات الطنبور، تعبيرا عن حزنهن على الملك الصقلي المذكور الذي كان الضامن الرئيسي لحماية المسلمين وأمنهم[1].

وإذا استثنيا المزارعين ورقيق الأرض الذين كانوا تحت رحمة الإقطاعيين كما سيتبين لنا لاحقا، فإن الفئات الأخرى من الأقلية الإسلامية المستقرة في الحواضر كانت تعيش تحت حماية القوانين النورمانية، خاصة في الفترات التي تكون فيها السلطة المركزية قوية، لذلك لا غرابة أن تكون علاقة المسلمين بالسلطة الحاكمة علاقة قائمة على التسامح وتبادل المصالح.

ونستشف من نصوص ابن جبير ما يؤكد سياسة التسامح التي نهجها الملك غليام الثاني أيضا تجاه الأقلية الإسلامية، فقد صادف خروجه إلى أحد الموانئ للإشراف على بناء أسطول بحري وصول السفينة التي كانت تقل الرحالة الأندلسي ابن جبير، وهي تشرف على الغرق بسبب هيجان البحر. وقد أدت هذه الكارثة إلى فقدان الركاب أمتعتهم وأموالهم، مما جعل بعض فقراء المسلمين عاجزين على أداء ثمن إنقاذهم من قبل أصحاب الزوارق، وكادوا أن يقعوا في فخ الرق لولا تدخل الملك المذكور الذي ((أمر لهم بمائة رباعي من سكته ينزلون بها، فخلص جميع المسلمين عن سلام)) [2].

---

[1] مورينو مارتينيو ماريو، المسلمون في صقلية، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت 1968، ص 22.

[2] ابن جبير، م. س، ص256.

كما شهدت فترة نهاية الحكم النورماني، خاصة في عهد فريدريك الثاني استمرار الحوار الثقافي بين الإسلام والمسيحية عبر الأسئلة الدينية والعقائدية التي وجهها هذا الملك الصقلي إلى ابن سبعين طالبا منه الإجابة عنها[1].

والحاصل أن هذا المناخ من التسامح أسفر عن ميلاد سلم اجتماعي، سيعمل على تأقلم الأقلية الإسلامية مع المجتمع الصقلي الجديد واندماجها فيه، وهو ما سنتناوله من خلال إبراز إسهاماتها في المبحث السادس.

يستشف مما تقدم أن الأقلية الإسلامية أصبحت تعيش في مجتمع جديد تغيرت ملامحه الاقتصادية والسياسية والنفسية، وتغيرت هياكله الاجتماعية والقانونية، مما شكل صدمة عنيفة لها، وفرض عليها نمطا حضاريا جديدا استفاقت عليه، وخاصة في الأرياف والبوادي. بيد أن هذه التحولات الجديدة حملت بذور الموروث الثقافي الإسلامي، وتأطرت في وعاء الإبداعات الحضارية الإسلامية، حيث أبقت على النظم الإدارية واللغة العربية، مما خلق إطارا ومظلة مكنت المسلمين من التأقلم والاندماج في نسيج المجتمع الجديد رغم

---

[1] انظر التفاصيل في : أمين الطيبي، دراسات وبحوث في تاريخ المغرب والأندلس، ص69- 70.

الإكراهات المختلفة التي لم تخفها الروايـــات التاريخيـــة، وهـــو مـــا سنعالجه لاحقا.

المبحث الثالث:

# الوضعية الاجتماعية للأقلية الإسلامية بصقلية

لا سبيل لإنكار التحولات الجديدة التي أسفر عنهــا الاحتلال النورماني لصقلية، والتأثيرات التي تركت بــصماتها علــى المشهد الاجتماعي، وحسبنا ما حدث من تحركات بشرية وهجرات طارئــة وإفراغ مناطق وتعمير أخرى. فبقدر ما أصبحت صقلية منطقة طــرد بشري للمسلمين، بقدر ما صارت أيضا منطقة جذب لشعوب أخــرى، مما تمخض عنه تعمير بشري جديد، وتوزيع سكاني مغاير، وتبدلات في المنحنى الديموغرافي لمسلمي بــصقلية، ناهيــك عــن التراتــب الاجتماعي الجديد الذي فرضته طبيعة النظام الفيودالي، وهو مــا أدى إلى ظهور قيم وسلوكات اجتماعية جديدة خارجة عن مسار المــألوف في وسط الأقلية الإسلامية بــصقلية، خاصــة بعــض الشخــصيات المتنفذة التي كانت تحتل المناصب القياديــة وتتــولى المــسؤوليات الإدارية.

## 1 – تحولات فــي الانتــشار الــسكاني وتغيــرات فــي الخريطــة الديموغرافية:

قبل رسم الخطوط الكبرى لمواقع انتشار الأقلية الإسلامية فــي مختلف المدن والقرى حسبما تسمح به المتون المصدرية المتــوافرة، يجدر بنا الوقوف على المكونات القبلية التي تشكلت منها تلك الأقلية.

تتيح مختلف النصوص والمستندات بالتعرف على مختلف الشعوب والإثنيات والقبائل التي تشكلت منها الأقلية الإسلامية في صقلية، فقد كانت هذه الأخيرة عبارة عن خليط من العرب والبربر والفرس والأفارقة. وحسبما يستشف من أسماء الشهود الواردة في ذيل وثائق التمليك والبيع والشراء التي احتفظ بها الأرشيف الصقلي، تظهر أسماء عدد من القبائل اليمنية مثل الأزد وكندة ولخم ومعافر، إلى جانب عرب القبائل المضرية مثل قيس وقريش وتميم. كما ترد أسماء قبائل بربرية في لائحة الجرائد مثل مكلاته ونفزة ومسراتة[1]. وبالمثل فإن طوبونيمية المواقع تثبت أسماء بعض القبائل المستوطنة لصقلية مثل برقة وسوسة ومسيلة وغيرها[2]. مما يدل على أن الأقلية الإسلامية في صقلية كانت تشمل مجموعة متنوعة من القبائل العربية والأمازيغية التي كانت تمثل غالبيتها. وترجع أصول استقرار تلك القبائل إلى فترة الفتح الإسلامي لصقلية حين انتقلت معظمها مع موجات الجند المشاركين في حملة أسد بن الفرات إلى صقلية سنة 212 هـ/ 827م، وما أعقبها من هجرات شمال- إفريقية كان روادها يحلمون بعيش أفضل في الضفة الشمالية للعالم المتوسطي.

---

[1] أنظر وثائق بيع الأراضي وانتزاعها مما سيرد في المبحث القادم.

[2] إحسان عباس، العرب في صقلية، ص 140.

بيد أن هذه التجمعات الإسلامية أصبحت في الحقبة النورمانية تعيش وسط فسيفساء من الشعوب الأخرى الوافدة على صقلية بعد الغزو النورماني كالرومانيين واللمبارديين واليونانيين والبلغار، فضلا عن الشعوب المستوطنة بها قديما، وهي التي تعرض ابن حوقل[1] لذكر بعضها كاليهود والصقالبة، مما أسفر عن تغير في الخريطة العرقية التي لم تعد تمثل الأكثرية الإسلامية، بل أصبحت شديدة التنوع، ولم يعد فيها للعنصر الإسلامي الوزن الثقيل الذي كان يميزها في المرحلة السابقة.

## مناطق استقرار الأقلية الإسلامية:

يمكن رسم الخطوط الكبرى لمناطق استقرار الأقلية الإسلامية من خلال سجلات بيع الأملاك العقارية والنصوص الجغرافية ومشاهدات الرحالين. وبناء على تلك المستندات، يتبيّن أن الكثافة السكانية للأقلية المسلمة كانت مرتفعة في بعض المناطق الصقلية، بينما كانت متوسطة أو منخفضة في مناطق أخرى. ويرجع الفضل إلى ابن جبير في الكشف عن مناطق استقرار المسلمين في المدن الصقلية، وعن حجم تواجد الأقلية الإسلامية في كل مدينة على حدة.

---

[1] انظر إشارات ابن حوقل إلى حارة الصقالبة وحارة اليهود في : صورة الأرض، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة 1995، ص 114 ، 11

فبالنسبة للمناطق ذات الكثافة السكانية الإسلامية المرتفعة، تأتي مدينة مازر Mazar[1]، والعاصمة باليرمو[2] Palermo المعروفة أيضا باسم "المدينة" في طليعة المدن الصقلية ؛ فقد سجل ابن حوقل[3] أن أكبر عدد من السكان المسلمين كان في باليرمو. ورغم أن هذه الشهادة ترجع إلى ما قبل المرحلة موضوع الدراسة ( القرن 4 هـ/ 10م )، فمن الراجح أن المدينة استمرت خلال العصر النورماني آهلة ((بسكنى الحضريين من المسلمين)) كما تدل على ذلك شهادة ابن جبير[4] الذي زارها في الحقبة مدار الدراسة. ويستشف من خلال ما أورده هذا الرحالة أنهم أقاموا هناك في ربض خاص بهم، بعيدين عن السكان المسيحيين، أو في بعض الفنادق المنتشرة في باليرمو[5]، والفنادق في مفهوم المدينة الوسيطية تشير إلى أحياء كبيرة لها خصوصيتها، وتسكن بها عناصر سكانية تجمعها مميزات حضارية مشتركة . وتكشف نصوص ابن جبير أيضا عن وجود مساجد ومحاضر إسلامية بها لتعليم الصبيان القرآن الكريم. كما يفهم من

---

[1] أمين توفيق الطيبي، دراسات وبحوث في تاريخ المغرب والأندلس، ص47 - إحسان عباس، م. س، ص140.

[2] توجد في الساحل الشمالي لجزيرة صقلية، وهي حاضرة هذه الجزيرة، أوردها ياقوت الحموي باسم بلرم، بفتح أوله وثانيه، وسكون الراء... وهي أعظم مدينة في جزيرة صقلية في بحر المغرب على شاطئ البحر. انظر، معجم البلدان، ج 1، ص483.

[3] صورة الأرض، ص115.

[4] رحلة ابن جبير، ص266- 267.

[5] المصدر نفسه، 273- 274.

نصوصه أيضا أن القرى المحيطة بباليرمو كانت تستوعب عددا من السكان المسلمين.

وعند حديثه عن مدينة ثرمة Termini [1] يشير إلى وجود مقبرة للمسلمين تبعد عن المدينة بحوالي فرسخ، مما يشي بوجود كثافة سكانية عالية من المسلمين في هذه المدينة كذلك[2]. ومما يدعم هذا الافتراض إيماءاته حول كثرة المساجد بها، وهو مؤشر يستنتج منه كثرة عدد ساكنتها من المسلمين[3]. والراجح أن مدينة انطرابنش Trapani[4] كانت تضم بدورها كثافة عالية من السكان المسلمين بهذه المدينة، وهو استنتاج يزكيه أن هؤلاء كانوا يؤدون شعائرهم الدينية، وينظمون طقوسهم الاحتفالية علنا [5]، وهو ما يحمل على الاستنتاج أن مثل هذه السلوكات لا تصدر إلا من فئة تكون قوتها البشرية قد أخذت بعين الاعتبار في قرارات السلطة الحاكمة . نفس المشهد نجده في مدينة علقمة Alcamo التي كانت تضم عددا من المسلمين، بدليل

---

[1] توجد في الساحل الشمالي الشرقي لجزيرة صقلية، يقول عنها ياقوت الحموي : ثرمة، بالكسر ثم السكون : بلد في جزيرة صقلية، كثيرة البراغيث شديدة الحر، انظر : ياقوت الحموي، م.س، ج 2، ص 76.

[2] ابن جبير، م.س، ص 271.

[3] المصدر نفسه، ص 270

[4] توجد في الركن الشمالي الغربي الساحلي لجزيرة صقلية.أوردها كل من ياقوت الحموي والإدريسي تحت اسم طرابنش، انظر : ياقوت الحموي، م.س، ج 4، ص 26.

[5] ابن جبير، م.س، ص 276

وصف الرحالة الأندلسي لها بالكبر والسعة وكثرة المساجد[1]، علما أن كثرة المساجد تعدّ مؤشرا من المؤشرات الدالة على تكاثر المسلمين بتلك المدينة. وبالمثل شكّل المسلمون نسبة كبيرة في الجنوب الشرقي من جزيرة صقلية، في إقليم نوطس[2] Val di Notis.

ورغم أننا لا نملك إحصائيات دقيقة حول عدد الأقلية الإسلامية بالأرياف، فيبدو من خلال إشارات ابن جبير أن عددها كان مرتفعا. فقد استرعى انتباهنا ونحن بصدد قراءة نصوص رحلته إيماءات توحي بكثرة المسلمين في الأرياف. فعند وصوله إلى مدينة علقمة Alcamo السالفة الذكر، لاحظ أن ((سكانها وسكان هذه الضياع التي في هذه الطريق كلها مسلمون))[3]. ومعنى ذلك أن الطريق التي سلكها والتي تفصل باليرمو عن علقمة نحو انطرابنش كانت تضم عددا كبيرا من المسلمين الممتهنين للحياة الزراعية أو رقيق الأرض كما سنحلل عند تناول الوضعية الاقتصادية للأقلية الإسلامية. وفي نفس المنحى الدال على كثرة السكان المسلمين في الأرياف، يذكر ابن جبير عند حديثه عن مدينة انطرابنش أنها ((على محرث عظيم، وسكانها المسلمون والنصارى))[4].

---

[1] المصدر نفسه، ص 274

[2] امين توفيق الطيبي، م.س، ص 47

[3] ابن جبير، م.س، ص 274

[4] المصدر نفسه، ص 275.

ومن باب الاستنتاج أيضا، يمكن استحضار بعض المدن الصقلية التي كانت فيها الأقلية الإسلامية ذات كثافة متوسطة، شفيعنا في هذا الاستنتاج أن ابن جبير لم يشر إلى كونها ذات كثافة سكانية عالية أو منخفضة كما فعل عندما وصف مدنا أخرى. ومن هذا القبيل مدينة شفلودي Celafu التي كانت تضم بدورها طائفة من المسلمين، لم يأت ابن جبير بصددها بتفاصيل تذكر[1].

أما بالنسبة للمدن التي كان عدد السكان المسلمين بها منخفضا، فتأتي في مقدمتها مدينة مسينة Messine بدليل قول ابن جبير[2] ((وليس في مسينة هذه من المسلمين إلا نفر يسير من ذوي المهن، ولذلك يستوحش بها المسلم الغريب))[3]. وللأسف فإنه لم يوضح طبيعة المهن التي كان يحترفها هؤلاء المسلمون، وإن كان من المحتمل أن تكون مهن "تحت الطلب "، أي تلك التي تحتاج إليها سلطات المدينة، فكانوا يحاولون إرضاء أصحابها للبقاء بها لحاجتهم إليهم. ويبدو أيضا أن عدد المسلمين كان قليلا ومتناثرا في إقليم دمنش Val Demone[4]، وهو ما توضحه الخريطة التالية:

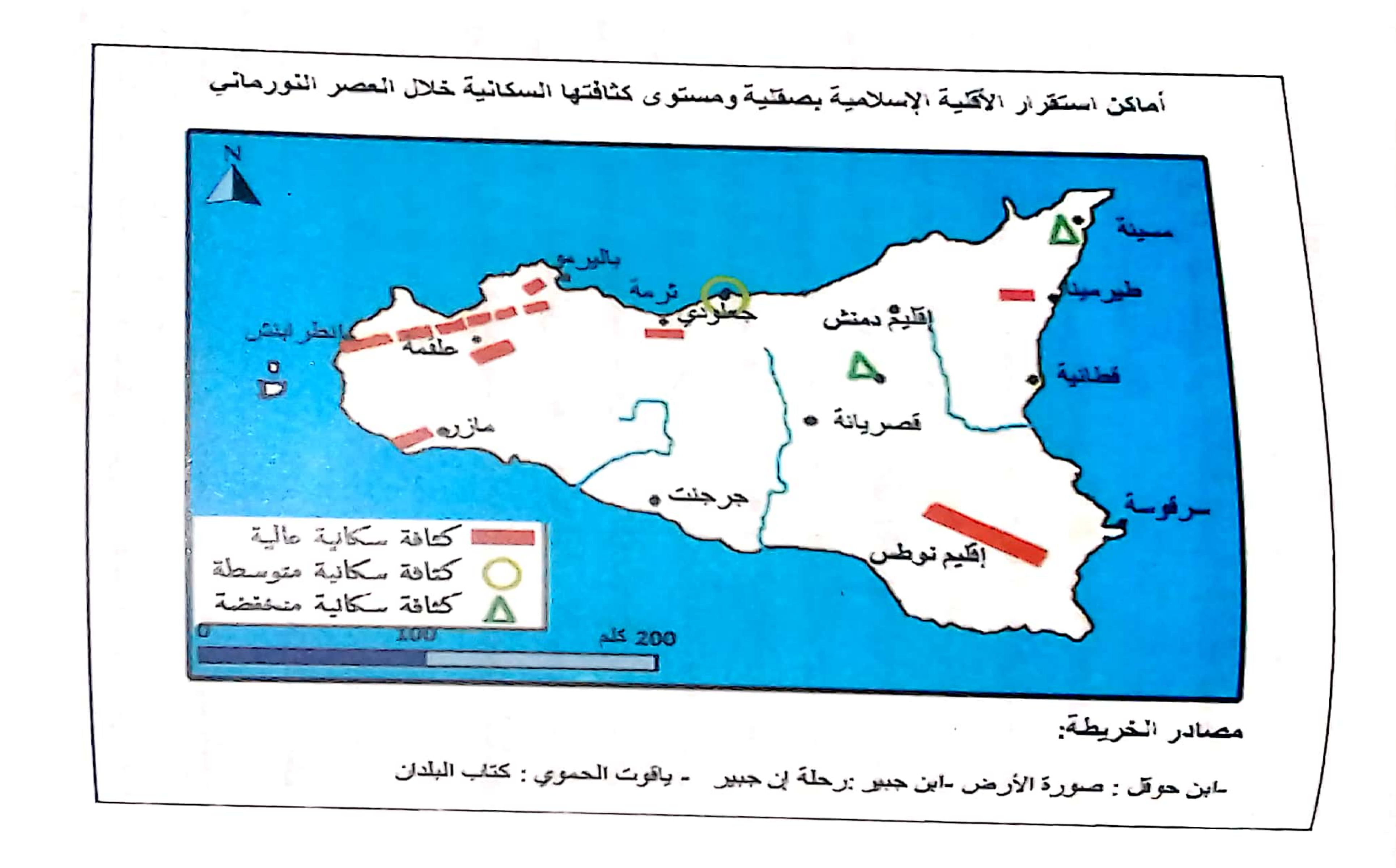
---

[1] المصدر نفسه، ص 270..

[2] المصدر نفسه، ص 270.

[3] المصدر نفسه، ص 266.

[4] أمين توفيق الطيبي، م. س، ص47.




أماكن استقرار الأقلية الإسلامية بصقلية ومستوى كثافتها السكانية خلال العصر النورماني

مصادر الخريطة:

-ابن حوقل : صورة الأرض -ابن جبير :رحلة ابن جبير - ياقوت الحموي : كتاب البلدان

**مسارات الهجرات:**

يخيل إلينا من خلال فحص ما بين أيـديـنا مـن نـصوص، أن التطور الديموغرافي للمسلمين في صقلية إبان الحقبة النورمانية سار في اتجاهين:

- **اتجاه تصاعدي** نجم عن بعض الهجرات الاضطرارية بسبب إكراهات سياسية واقتصادية، خاصة مـن القيـروان نحـو صـقلية؛ مصداق ذلك ما ورد عند المؤرخ عبد الواحد المراكشي[1] من أنه بعد تعرض القيروان للخراب من قبل بني هلال ((تفرق أهلها فـي كـل وجه فمنهم من قصد مصر ومنهم من قصد صقلية))، وهو ما يـشي بحدوث هجرة جماعية نحو صقلية بسبب الغزوة الهلالية والتـصدع الذي أصاب الدولة الزيرية من جراء ذلك. كما استقبلت صقلية أيضا هجرة بعض العلماء والشخصيات من النخبة الإسلامية من أمثال ابن رشيق القيرواني[2] وقسطنطين الإفريقي، والجغرافي الشهير الـشريف الإدريسي الذي وفد على صقلية سنة 533هـ /1138م[3]، كذا الـشاعر

---

[1] المعجب في تلخيص أخبار المغرب، مكتبة التاريخ والحضارة الإسلامية، الخطيب للتسويق والبرامج، الأردن، عمان، النسخة الإلكترونية، ص356.

[2] ابن خلكان، وفيات الأعيان، مكتبة التاريخ والحضارة الإسلامية، الخطيب للتسويق والبرامج، الأردن، عمان، النسخة الإلكترونية، ج2، ص85.

[3] محمد حاج صادق، مقدمة كتاب نزهة المشتاق للإدريسي – قسم المغرب العربي ، طبعة الجزائر Opu – published 1983، ص29.

ابن قلاقس الإسكندراني الذي حلّ بها في عهد غليام الثاني[1]. ورغم أن هذه الهجرات كانت فردية، فإن لها دلالات قوية على جاذبية صقلية للنخبة العالمة الإسلامية.

يضاف إلى ذلك لجوء بعض القادة المسلمين إلى صقلية في ذات الحقبة النورمانية مثل بعض حكام إفريقية الذين لجأوا إلى رجار الثاني ملتمسين منه الأمن والحماية[2].

أما الإكراهات الاقتصادية التي أدت إلى هجرات إسلامية جماعية في اتجاه صقلية، فتتجلى في المجاعة التي عصفت بقابس سنة 537هـ/ 1142 م بدليل قول ابن خلدون[3] ((وكان الغلاء قد اشتد في سنة سبع وثلاثين -537هـ - ولحق أهلها بصقلية)). ولعل ورود مصطلح "أهلها" في صيغة الجمع، مع اعتبار ظرفية المجاعة، يحمل إشارة توحي بكثرة عدد المهاجرين الذين انتقلوا إلى صقلية. أما ابن الأثير[4] فيقدم صورة أكثر دقة، إذ لا يحصر خبر المجاعة في قابس فحسب، بل يجعلها عامة على البلاد المغربية، وأنها استمرت من سنة 537 هـ إلى سنة 543 هـ /1142- 1148م، مؤكدا أن ((الناس فارقوا البلاد والقرى، ودخل أكثرهم إلى مدينة صقلية))، مما يدل

---

[1] إحسان عباس، م. س، ص287.
[2] ابن خلدون، كتاب العبر، ج5، ص 203 - وانظر أيضا نفس المصدر، ج6، ص177.
[3] كتاب العبر، ج5، ص203.
[4] الكامل في التاريخ، ج9، ص 18.

على أن الهجرة نحو صقلية لم تقتصر على أماكن الطرد التقليدية كمدن إفريقية، بل شملت كذلك مناطق واسعة من الغرب الإسلامي.

من جهة أخرى، تمدنا النوازل الفقهية ببعض النصوص حول هجرة بعض التجار المسلمين نحو صقلية بحثا عن موارد الرزق. وإذا كان بعض الباحثين لا يرى فيها سوى هجرات موسمية فحسب تنتهي بالعودة صيفا[1]، فإن بعض التجار كانوا يجدون ضالتهم في صقلية فيمكثون بها عدة سنين[2].

وبالمثل شهدت صقلية وفود هجرات قسرية بسبب الغارات التي كان يشنها النورمان على السواحل الإفريقية والتي عادة ما تنتهي – بعد التخريب والدمار – بأسر عدد من المسلمين الذين كانوا يهجّرون قسرا كعبيد إلى صقلية، وهو ما يؤكده التيجاني[3] الذي ذكر في أحداث سنة 480 هـ/ 1087 م وقوع هجوم لهم على المهدية أعقبه صلح بين تميم بن المعز وقائد الحملة النورمانية يقضي بدفع أموال لهم وحمل ما طاب لهم من النساء والأطفال الذين تم أسرهم

---

[1] نوازل المازري، ص 142- 159 : اقتباسا من : محمد حسن، الجغرافية التاريخية لإفريقية من القرن الأول إلى القرن ا لتاسع، ص175.

[2] وردت عدة نوازل حول سفر بعض المسلمين إلى صقلية وعدم عودتهم إلى زوجاتهم، ومنها رجل سافر إلى صقلية وغاب عن زوجته مدة خمس سنين، أنظر : الونشريسي، المعيار المعرب، ج3 ص 124-311-313-314.

[3] رحلة التجاني، تقديم حسن حسني عبد الوهاب، الدار العربية للكتاب 1981، ليبيا - تونس، ص 272

نحو صقلية. وفي نفس الاتجاه، يشير ابن الأثير [1] في معرض حديثه عن أحداث سنة 523هـ/1128م إلى هجوم الأسطول الصقلي على جزيرة جربة وسبي عدد كبير من الحريم والنساء والأطفال ونقلهم إلى صقلية. في حين يمدنا ابن خلدون [2] برقم إحصائي - ولو أنه متأخر نسبيا - إذ يرجع إلى سنة 683هـ/ 1284 م، وفيه يكشف أن عدد المهجّرين الذين نقلوا قسرا إلى صقلية بلغ 8.000 أسير، استعمل العنصر الذكوري منهم كعبيد في مزارع وضيعات الإقطاعيين بها.

- **اتجاه تنازلي** يتمثل في الهجرة الإسلامية المعاكسة التي انطلقت من صقلية نحو سواحل الغرب الإسلامي أو المناطق الإسلامية الأخرى بسبب الإكراهات التي فرضها الوجود النورماني بصقلية. ويقدر أحد الباحثين عدد المهاجرين من صقلية بما لا يقل عن خمسين ألف مهاجر، فروا بدينهم وأموالهم نحو المدن الساحلية بإفريقية، ويشير إلى أن هذه الهجرات لم تتم دفعة واحدة، بل بكيفية متدرجة ومستمرة[3].

يمكن أن نقدر أن تكون أول هجرة جماعية من صقلية نحو بلدان الغرب الإسلامي قد تمت بعد إخفاق الأسطول العسكري الذي

---

[1] الكامل في التاريخ...م.س ، ج8، ص350.

[2] العبر، م.س...، ج4، ص697.

[3] عبد المجيد تركي، قضايا ثقافية من تاريخ الغرب الإسلامي ( نصوص ودراسات )، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1988، ص66.

وجهه أمير دولة بني زيري تميم بن المعز بقيادة ابنيه أيوب وعلـي، حيث رجع الأسطول محمّلا بجماعة من أعيان صقلية الـذين آثـروا ترك الديار الصقلية والاستقرار في إفريقية، وهو ما يستشف من قول المؤرخ النويري: ((فرجع أيوب وأخوه في الأسطول إلـى إفريقيـة وذلك في سنة إحدى وستين وأربعمائة، وصحبهم جماعة مـن أهـل صقلية))[1].

أما على مستوى هجرات النخبة الإسلامية العالمة من صـقلية نحو الديار الإسلامية، فيتحدث ابن الأثير وغيره من المؤرخين[2] عـن هجرة العلماء المسلمين من صقلية في صيغة تعكس أعدادهم الكبيـرة بدليل قوله: ((وفارقها كثير من أهلها من العلماء والصالحين)). ومـن بين هؤلاء العلماء مصعب بن محمد بن أبي الفرات الذي ترك صقلية سنة 464هـ/ 1071م ((بعد تغلب الـروم عليهـا))[3]، وابـن القطـاع اللغوي الذي هجر صقلية متوجها نحو مصر في حدود سنة 500هـ/ 1106 م مباشرة بعد إحكام النورمان قبضتهم على مقاليد الجزيرة[4].

---

[1] النويري، نهاية الأرب، ج 24، ص 382.

[2] الكامل في التاريخ، ج8، ص158- أبو الفدا، تقويم البلدان، المكتبة العربية الصقلية، م.س، ص414

[3] ابن الأبار، التكملة ، مكتبة التاريخ و الحضارة الإسلامية، الخطيب للتسويق والبرامج، الأردن، عمان، النسخة الإلكترونية، ج2، ترجمة 494، ص 188 - 189.

[4] ابن كثير، البداية والنهاية ، مكتبة التاريخ و الحضارة الإسلامية، الخطيب للتسويق والبرامج، الأردن، عمان، النسخة الإلكترونية، ج12 ، ص188.

ومن جهتهم بادر الشعراء إلى ترك صقلية خلال السنوات الثلاثين التي أعقبت الغزو النورماني، وحسبنا أن بعضهم فرّ خوفا منذ أول هجوم وقع عليها. ووفقا لرواية صاحب " ذكر أخبار صقلية"، خرجت جماعة من مسلمي صقلية متجهة نحو إفريقية، طالبة نجدة أميرها المعز بن تميم[1]، بيد أن انهزام أسطوله بسبب سوء احوال الطقس وهيجان البحر فتّ في عضد كثير منهم، وجعل اليأس يتسرب إلى نفوسهم، مما حدا بهم إلى مغادرة صقلية الهجرة نحو إفريقية. في حين قصد بعض المهاجرين المسلمين بلدانا إسلامية أخرى كلما سنحت لهم الفرصة[2]. واختلفت وجهات المهاجرين من الشعراء، وإن كان معظمهم فضّل الأندلس والإقامة في إمارة المعتمد بن عباد أو إمارة الزيريين. ونذكر من بين هؤلاء الشعراء الذين هجروا الديار الصقلية: علي بن الحسن بن الطوبي الذي التحق ببلاط الأمير تميم بن المعز، وأبو بكر الصقلي الذي استوطن مدينة القيروان[3]، فضلا عن ابن أبي بشر الصقلي، وأبو العرب الصقلي

---

[1] أبو عبد الله النقايري، ذكر أخبار صقلية، اقتباسا من : العلاقات العربية الصقلية خلال القرنين السادس والسابع الهجريين، 12-13 الميلاديين 484- 682هـ/ 1091-1284م، أطروحة لنيل درجة الدكتوراه في التاريخ، من إعداد رمضان المبروك خليفة الصيد، العام الجامعي 1999-2000، ص 486.

[2] إحسان عباس، م. س، ص227.

[3] ترجم لهما الأصفهاني في خريدة القصر وجريدة العصر، قسم شعراء المغرب والأندلس، تحقيق محمد المرزوقي ومحمد العروسي المطوي، الدار التونسية للنشر، تونس 1986، ج1، ص 72-73 ؛ 327-328.

وعبد الجبار بن حمديس الصقلي الذي احتفظ لنا ديوانه ببعض الأبيات التي أنشدها مودّعا صقلية، والألم يعتصر فؤاده وهو يهجرها مكرها:

أرى بلدي قد سامه الروم ذلة    وكانت بقومي عزه متقاعسا
وكانت بلاد الكفر تلبس خوفه    فأضحى لذلك الخوف منهن لابسا[1].

ومن خلال تراجم بعض العلماء، نكتشف أسماء بعض الشيوخ الصقليين الذين هاجروا من صقلية بعد الاحتلال النورماني. ويأتي في طليعتهم الإمام المازري الذي يرجع أصله إلى مدينة مازر الصقلية، وأقام في مدينة المهدية في الساحل التونسي، وهناك طارت شهرته العلمية في الافاق[2]. كما نستشف من خلال تراجم أخرى اسماء لامعة من العلماء النوابغ. فقد ورد في ترجمة عبد القادر بن محمد الصدفي المعروف بابن الحناط (425 – 507/ 1032– 1113م) من أهل القيروان أنه تتلمذ على يد ثلّة من علماء صقلية الذين حطوا الرحال بالساحل التونسي، نذكر من بينهم احمد بن محمد بن يحي الصقلي[3]،

---

[1] ديوان ابن حمديس، تحقيق إحسان عباس دار صادر، بيروت 1960، ص 275.

[2] ابن فرحون، الديباج المذهب، تحقيق محمد الأحمد ابو النور، ط2، دار التراث العربي للطباعة والنشر. القاهرة 1976، ج2، ص ص 250.

[3] ابن بشكوال، كتاب الصلة، تحقيق السيد عزت العطار الحسيني، القاهرة 1994، ص 88، 371- 372

وعبد الجليل بن مخلوف الصقلي[1]. وأبو عبد الله الصفار الذي هاجر صقلية مباشرة بعد الغزو النورماني، تاركا ممتلكاته وكل ما عزّ في نفسه، واستقر في القيروان[2]. ورغم أن هذه الهجرات تعتبر فردية، فإن دلالتها المعنوية تكتسي بعدا هاما في تقدير نفسية الأقلية الإسلامية التي بدأت تشعر بالغربة والعزلة في خضم التحول الذي حمله معه المجتمع الصقلي الجديد.

يضاف إلى ذلك هجرة ثلّة من الشرفاء الصقليين إلى مدينة فاس بالمغرب الأقصى، وهم من سلالة الدوحة النبوية الشريفة. يقول ابن الخطيب بهذا الصدد: ((وكان جل من انتقل عنها – صقلية – عند الحادثة: الشرفاء المستقر بعضهم عند مدينة فاس، ومن الفقهاء والمحدثين جملة، ومن الكتاب والبلغاء والشعراء))[3]. وتفسّر هجرة هؤلاء العلماء الأشراف إلى مدينة فاس بكونها كانت على مرّ التاريخ العاصمة العلمية للمغرب الأقصى، وأفلحوا في إشاعة حراك ثقافي متميّز، كانت العلوم الفقهية أبرز مشاهده[4].

---

[1] عياض، ترتيب المدارك، تحقيق سعيد أعراب، ، طبعة فضالة- المحمدية 1983، ج8، ص74.

[2] ابن ظافر الأزدي، بدائع البدائه، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة 1970، ص 305.

[3] ابن الخطيب، المغرب العربي في العصر الوسيط، ج3، ص 132-133.

[4] رمضان المبروك الصيد، م.س، ج2، ص 391 – 392.

من البديهي أن تؤثر هذه الهجرات الطردية سلبا على المستوى العددي والديموغرافي للأقلية الإسلامية المقيمة بصقلية، ففي الوقت الذي أصبحت هذه الأخيرة منطقة طرد للمسلمين، تحولت إلى مناطق جذب ومكانا مفضلا لهجرات جماعات من النورمانيين من شمال فرنسا واللمبارديين من شمال إيطاليا، وهم من أكثر الأجناس تعصبا ضد المسلمين[1]، ناهيك عن شعوب أخرى شكلت صقلية قبلة لها بعد انتهاء الحكم الإسلامي منها. وقد حظيت الهجرة اللومباردية لصقلية بتشجيع بعض الأمراء النورمان، خاصة زوجة رجار الأول الكونتيس أديليد Adelaide التي حفزتها أصولها الشمالية الإيطالية على تسهيل هجرة اللومبارديين، وتحفيزهم على الاستقرار بها.

يضاف إلى الهجرات الوافدة من فرنسا وشمال إيطاليا، وفود أجناس أخرى من الرومانيين واليونانيين والإيطاليين المنتمين للشمال، واليهود والأرمن والسلاف والبلقانيين والبلغار، مما جعل المسلمين يعيشون وسط أمواج من الطوائف والأجناس والشعوب المتنوعة التي كانت هويتها تتحدد من خلال الدين واللغة والحقوق التي تحصل عليها من قبل السلطة المركزية.

لقد تنبه المستشرق "جوستاف لوبون" إلى التحول الجذري الذي عرفته الخريطة الإثنية في صقلية بعد الغزو النورماني، فأشار إلى

---

[1] امين توفيق الطيبي، م.س، ص48.

التركيبة البشرية الجديدة التي أصبحت تكوّنها ستة أعراق على الأقل، وهم النورمان، والبريتان والإغريق واللومبار واليهود، إضافة إلى العنصر العربي والأمازيغي المتواجد أصلا في الجزيرة [1].

ويعبّر ابن الأثير عن هذا التعمير البشري الجديد لصقلية بقوله: ((وملك رجار جميع الجزيرة، وأسكنها الروم والإفرنج مع المسلمين، ولم يترك لأحد من أهلها حماما ولا دكانا ولا طاحونا)) [2]، وهو نص غني بالإشارات والإيماءات الدالة، لكننا نقتصر على إشارتين على الأقل وردتا فيه، تهمان الخريطة البشرية الجديدة لصقلية:

1- إشارة تهم الوافد البشري الجديد على صقلية، وهو ما يفهم من سياق النص: ((وأسكنها الروم والافرنج مع المسلمين))، مما يعني ظهور جنس بشري جديد على مستوى الخريطة الإثنية، ومن ثم تعدد الهويات وتنوع الثقافات في صقلية.

2- أما الإشارة الثانية، فتتجلى في أن الاحتلال النورماني للجزيرة سعى إلى طمس بعض الرموز الحضارية لمسلمي صقلية، وهو ما يفصح عنه النص بالقول أن رجار ((لم يترك حماما ولا دكانا ولا طاحونا)). ويغلب على الظن أن هذا السلوك من جانب العاهل الصقلي، أرسل إشارة هامة التقطها بعض من فطن من

---

[1] جوستاف لوبون، حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر، (ط3)، دار إحياء التراث العربي، بيروت 1979، ص 377.

[2] ابن الأثير، م.س، ج8، ص 159.

المسلمين إلى خطر هذه التحولات الجديدة، خاصة النخبة العالمة التي قررت المغادرة وهجرة الجزيرة. ويبدو أن المؤرخ ابن الأثير وقف على هذه الحقيقة حين أشار إلى تنبؤ بعض العلماء بما كان يخبئه لهم الوضع الجديد من تصفية للوجود الإسلامي بصقلية. فبمجرد ما استولى رجار المذكور على بعض الحصون في قصريانة إبان المراحل الأولى من الاحتلال الروماني (( فارقها كثير من أهلها من العلماء والصالحين))[1]، وهو نص ينهض حجة على بداية هجرة إسلامية واسعة بدأت بالعلماء والنخب، لتصل في نهاية المطاف إلى كل الشرائح الاجتماعية كما سنفصل في المباحث القادمة، ولعلّ هذا ما عبّر عنه الشاعر عبد الحليم الصقلي بقوله:

عشقت صقلية يافعـــــــا وكانت كبعض جنان الخلود

فما قدر الوصل حتى اكتهلت وصارت جهنم ذات الوقود[2]

ولعلّ تعبير ((جهنم ذات الوقود)) يحمل مغزى عميقا يكشف أن أرض صقلية التي كانت منطقة جذب بشري للمسلمين، أصبحت منطقة طرد بشري، ومصدرا لتآكل ديموغرافي ستتحول معه الأكثرية المسلمة إلى أقلية.

---

[1] المصدر نفسه، ص 158.

[2] الخفاجي، طراز المجالس، المطبعة الوهبية، مصر 1284هـ، ص 174.

ورغم المعاملة الحسنة التي عامل بها رجار المسلمين في صقلية نتيجة عدم إمكانية استغنائه عنهم في خدماته العسكرية والإدارية كما سنأتي على ذكره، فإن أكثر العرب غادروا البلد بعد انتهاء السيادة الإسلامية[1]، وهو ما يعني أن صقلية بدأت تفقد رأسمالها البشري الإسلامي الذي أكدت الوقائع والمنجزات الخبرة والتجارب العميقة التي كان يتوفر عليها، وأن الفئة القليلة التي بقيت مقيمة فيها عرفت باسم الصياقلة[2] الذين نفتقر إلى إحصائيات دقيقة عن عددهم البشري.

وقد فطن البحاثة أمين توفيق الطيبي إلى هذا النزيف الديموغرافي الإسلامي الذي نجم عن الاحتلال النورماني، فأشار إلى أن مدنا أو أقاليم كإقليم مازر Mazara Val di في غرب جزيرة صقلية كانت تشكل الأكثرية من السكان المسلمين، على عكس القسم الشمالي الشرقي الذي لم يكن يحتضن سوى أقلية صغيرة منهم. إلا أن خريطة الجزيرة السكانية لم تلبث أن بدأت في التبدل على حساب المسلمين لتوالي هجرة هؤلاء من الجزيرة إلى إفريقية والأندلس والمشرق،

---

[1] Encyclopedia Britanica , Leiden- London, Vol 20 , p 471.
اقتباسا من : تقي الدين الدوري، م.س، ص 471.

[2] ابن الأثير، م.س، ج2، ص 158

ولوفود جماعات من النورمان من شمال فرنسا، ثم توالي هجرة اللمبارد من جنوب إيطاليا واستيطان صقلية [1].

يستشف من جل هذه الاستشهادات أن التعمير البشري الجديد بصقلية تميز بخاصين : وفود هجرات بشرية نورمانية، إغريقية، لمباردية وبريطانية بكثافة إلى الجزيرة، مقابل تناقص واضح في السكان المسلمين الذين كانوا يقيمون بها، وهو ما جعلهم يتحولون من أكثرية إلى أقلية. ورغم افتقارنا إلى نصوص رقمية تؤكد هذه النتيجة، فإن المنطق التاريخي والتحليل النسقي المبني على ما توافر من نصوص تاريخية وجغرافية ورحلية، إضافة إلى المشاعر الدفينة التي عبّرت عنها قصائد الشعراء -كما أثبتنا ذلك - تثبت هذا المعطى الجديد المعبّر عن تناقص أعداد المسلمين وتحولهم إلى أقلية. ومما يدعّم هذا المعطى أن كثيرا من عناصر الأقلية الإسلامية الذين بقوا في صقلية كانوا يتمنون أيضا الهجرة إلى الديار الإسلامية كما تؤكد ذلك شهادة الرحالة الأندلسي ابن جبير [2].

---

[1] امين توفيق الطيبي، م.س ، ص 48.

[2] ابن جبير، م.س، ص 267.

## 2 – التراتب الاجتماعي للأقلية الإسلامية في صقلية وموقعها في سياق سياسة التوازن الاجتماعي:

من خلال تشخيص هيكلة البناء الاجتماعي لمسلمي صقلية في ظل السلطة النورمانية، يبدو أنها تشكلت في صورة هرم يتسنم قمته فتيان القصر الذين ارتبطوا بخدمات البلاط، وحظيت فئة منهم خاصة الوزراء والحاشية والمقربون من الملك بمكانة اجتماعية متألقة، وإن كانت غير ثابتة، وكان بقاؤها رهنا بمزاج الحاكم. ويندرج ضمن هذه الفئة قادة الجيش مثل فيليب المهدوي ونخبة العلماء كالشريف الإدريسي وابن أبي زرعة، وبعض الشعراء المدّاحين. يضاف إليهم بعض زعماء الأقليات الإسلامية من المنتمين للقصر، أو حكام بعض المناطق والأقاليم الصقلية المعروفين باسم " القائد" Gayti كأبي حمود بن قاسم المسمى بابن حجر الذي كان يتمتع بمكانة اجتماعية متميزة، قبل أن تهتز وضعيته بسبب مصادرة أملاكه في عهد الملك غليام الثاني.

وسنحاول الوقوف عند فتيان القصر الذين جعلهم ابن جبير في منطقة الضوء، فقد تقلد بعض هؤلاء الفتيان مناصب هامة في قصر غليام الثاني، بينما احتل بعضهم الآخر مراتب دنيا في نفس البلاط، ويمكن الكشف عن وظائف هؤلاء الفتيان الذين وضعوا على شكل تراتبي كما يلي:

نجد في القمة الوزراء والحجاب، وإن كنا لا نملــك إشــارات صريحة حول هؤلاء الوزراء ومهامهم والمسؤوليات التي كلفوا بهـا. لكننا لا نستبعد أن تكون مهمتهم قد اقتصرت على الطابع الاستشاري في بعض القضايا والأمور التي تهم الأقلية الإسلامية، وربما الدولــة النورمانية أيضا، فضلا عن القرارات الخاصة بالحروب ضد مسلمي إفريقيا الشمالية أو مسلمي الشرق عمومــا، دون أن ننفــي إمكانيــة استشارتهم في بعض القضايا السياسية، واستعمالهم كورقة في صراع القصر مع النبلاء والإقطاعيين لأنهم كانوا يمثلون " نخبة " القــصر، وربما أيضا "العقل المدبّر" في بعض القضايا الحساسة.

وقد يكون بعضهم قد تقلد وظائف في الحــرس الملكــي وفــق النظام الإسلامي المعروف بالسلاحية الذي زودنا بـــه المــؤرخ ابــن الأثير حين تحدث عن الملك رجار وتعلقه بالنظـــام الإداري العربــي بالقول أنه ((سلك طريق ملوك المسلمين مــن الجنائــب والــسلاحية والجنادرية...وجعل له ديوان المظالم))[1]. والسلاحية تعنــي الرجــال الذين يحملون سلاح الأمير أو السلطان. ولا شك أن وجــود هــؤلاء الفتيان في القصر كان مرتبطا بمعرفتهم ودرايتهم الكاملة بهذه النظم. ومن المنطقي أن يكون لهم دور في تنظيمها والإشراف عليها. كمــا أن مصطلح " الجنادرية" الذي ورد في النص بصيغة الجمــع، يعنــي

---

[1] ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج8، ص159 .

الحجاب الذين يتم استئذانهم للدخول على الأمير خاصة عند انعقاد مجلس المظالم، وهو ما يفهم منه تقلد هؤلاء الفتيان لمنصب الحجابة، وهو منصب حساس، يعكس الثقة التي وضعها رجار في فتيان القصر المسلمين.

يأتي بعد ذلك الفتيان والجواري الذين تمثلت مهمتهم في التقاط الأخبار والتجسس على أعداء القصر النورماني، وتزويد الملك غليام الثاني بالشاذة والفاذة مما يجري داخل القصر وخارجه، فهم حسب تعبير الرحالة ابن جبير ((عيون دولته وأهل عمالته في ملكه)). كما تمثلت مهمتهم أيضا في الاشتغال في بعض الدواوين كديوان الطراز الذي كان مخصصا لصناعة الملبوسات والأزياء الفاخرة للملك الصقلي، وكان تحت إدارة شخص مسلم عرف باسم يحي بن فتيان الطراز[1].

ويلي هذه الفئة جماعة من المسلمين كانوا مكلفين بمهمة إعداد طعام البلاط والحاشية، وهم جماعة كان على رأسها مسؤول مسلم مكلف بالإشراف على مطبخ الملك، مما ينهض حجة على الثقة التامة التي وضعها غليام الثاني في هذه الفئة من المسلمين[2].

[1] ابن جبير، م.س، ص 268.
[2] المصدر نفسه، ص 267.

وفي أسفل هرم القصر يوجد العبيد السود الذين استعملهم الملك النورماني كخدم، لمعرفته بصبرهم على الأمور الصعبة وقدرتهم على تحمله العناء والمشّاق. ويبدو أن أصلهم يرجع إلى بلاد السودان، وخاصة بلاد غانة[1]. وكان من عادة الملوك العرب اتخاذ العبيد السود في قصورهم، علما أن صقلية كما أسلفنا القول كانت تلعب دور الوسيط في استقبال بضائع التجارة الصحراوية المنطلقة من السودان، مما جعل العبيد سلعة رائجة مثلت حضورا قويا على المستوى الاجتماعي.

ورغم الامتيازات التي حظي بها الفتيان، فإن القرائن تثبت أن "حزب القصر" المقرب من الملوك النورمان لم يكن في واقع الأمر سوى مجموعة من الأرقاء المستعبدين داخل البلاط، وهو ما يؤكده حديث أحد فتيان القصر الذين التقى بهم ابن جبير، وأسرّ له أنهم ((معتقلون في ملك كافر بالله، قد وضع في أعناقنا ربقة الرق))[2] ؛ بل كان الخوف والحذر من إظهار الهوية الإسلامية يفرض على بعض هؤلاء الفتيان تغيير أسمائهم العربية- الإسلامية، وهو ما يمثله نموذج الفتى الذي التقى به ابن جبير والذي كان قد غيّر اسمه إلى عبد المسيح[3]، فضلا عن نموذج آخر تحدث عنه التجاني في رحلته، وهو

---

[1] ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج4، ص 481.

[2] المصدر نفسه، ص268.

[3] نفس المصدر والصفحة.

موظف عربي كان يشغل منصب أشغال الجبايات أطلق على نفسه اسم عبد الله النصراني[1].

ولم تكن حالة باقي الفئات الاجتماعية أفضل حالا، إذ غير بعض المسلمين نسبتهم إلى صقلية بقلب الياء ووضعها قبل القاف، فصاروا يعرفون بالصياقلة[2] نسبة إلى حرفة الصيقلة حتى لا يتعرضوا للبطش. ويكشف الواقع المعاناة التي تحملتها الأقلية الإسلامية على مستوى الحياة اليومية، حيث تحول كثير من أفرادها إلى أرقاء كما سيأتي ذكره عند معالجة الأوضاع الاقتصادية، وكونوا فئة اجتماعية كانت تعيش ألوانا من البؤس والشقاء، وتفرض عليها الضرائب مرتين في السنة حتى أنها اضطرت لحمل السلاح في أواخر العصر النورماني، ولو أن وضعية بعضهم كانت أفضل في بعض المناطق الصقلية كما صرح بذلك ابن جبير مع التحفظ الذي أبداه حول عمق محنتهم وهو ما يتجلى في قوله: ((والمسلمون معهم على أملاكهم وضياعهم، وقد حسنوا السيرة في استعمالهم واصطناعهم، وضربوا عليهم إتاوة في فصلين من العام يؤدونها، وحالوا بينهم وبين سعة في الأرض كانوا يجدونها، والله عز وجل يصلح أحوالهم))[3].

---

1 التجاني، م.س، ص 273

2 حسان حلاق، م.س، ص 121

3 ابن جبير، م.س، ص 266.

ولا نعدم من النصوص ما يكشف عمّا تعرضت له فئة العامة من مسلمي صقلية من ابتزاز لم ينحصر في فرض الضرائب عليهم، بل استعملهم النورمان أيضا كرهائن معرضين لخطر الموت في أي لحظة، فإبان زحف الجيش الموحدي على المهدية بقيادة الخليفة عبد المومن بن علي وهزمه الأسطول الصقلي وتهديده لأفراده بالأسر والقتل، وجه حاكم صقلية إنذارا إلى المسلمين بأنه ((إن قتل عبد المؤمن أصحابنا بالمهدية، قتلنا المسلمين بجزيرة صقلية وأخذنا أموالهم))[1]. وفي هذا التهديد والوعد بالتصفية الجسدية ومصادرة الممتلكات والأموال ما يكشف عن جو الاضطراب النفسي الذي كانت الأقلية الإسلامية بصقلية تعيش تحت وطأته.

مع ذلك، ومن إنصاف الحقيقة والتاريخ أن نشير إلى سياسة التوازن الاجتماعي التي نهجها حكام صقلية، واستفادت منها الأقلية الإسلامية. فالشواهد المكتوبة والأثرية تدل على سعي معظم حكامهم إلى تثبيت السلم الاجتماعي بتطبيق سياسة متزنة يسودها نوع من التسامح، وهو تسامح فسره البعض بكونهم يشكلون أقلية أوليغارشية كان عليها أن تستند إلى القوة الإسلامية لمواجهة الأعداء المحيطين بها من كل صوب وحدب[2]، بيد أننا نرى أن البواعث الاقتصادية

---

[1] ابن الأثير، م، س، ج9، ص94.
[2] إحسان عباس م.س، ص137

لعبت دورا في هذا التسامح. فقد رأت السلطة الحاكمة في الإبقاء على علاقة طيبة بالمسلمين في صقلية فرصة للحفاظ على مصالحها التجارية التي ربطتها بمسلمي افريقية ومصر والشام، وهو ما تنطق بصحته المراسلات الخاصة بين رجار الثاني والخليفة الفاطمي سنة 530 هـ/ 1135م[1].

لقد كان القانون النورماني يسري على جميع الأجناس والإثنيات والطوائف المكونة للمجتمع الصقلي بما في ذلك الأقلية الإسلامية، وهو ما تشهد به الوثائق والمستندات. ففي البيان الصادر عقب إحدى الجلسات السياسية التي عقدت بأريانو Ariano سنة 535 هـ/ 1140م، نصّت الجملة الأولى من البيان على ما يلي: ((إن القوانين الجديدة ملزمة للجميع، ولكنها لا تمس بأخلاق وعادات وقوانين الشعوب الخاضعة لسلطتنا))[2]، وهي جملة بالغة الدلالة على مراعاة السلطة الحاكمة للخصوصيات التاريخية والحضارية للشعوب المكونة للمجتمع الصقلي بما فيها الأقلية الإسلامية موضوع بحثنا. ولم يكن ذلك مجرد نظرية تقفز على ألياف الواقع، بل كانت ممارسة

---

[1] محمد حسن، م س، ص172.

[2] Aube , (P), Roger de Sicile : un normand en méditerranée, Article publié sur le Web:
http://www.clio.fr/BIBLIOTHEQUE/les_normands_en_mediterranee_du_xie_au_XIIIe siècle. asp.

تطبيقية؛ وحسبنا أن رجار الثاني تــرك للمــسلمين نظــامهم الإداري المتمثل في سلطة الشيخ والحاكم والقائد والقاضــي. ولا غــرو فــإن مصطلح القائد أصبح شائعا في صقلية، وخرج عن مدلوله العــسكري ليشمل التنظيم الإداري لجماعات من العرب والأمــازيغ والأجنــاس الأخرى في القرى الصقلية[1]، وأصبح يرمز لسلطة إســلامية محليــة تأتي بعد مرتبة الأمير، وهي سلطة تندرج في المــوروث الــسياسي للحقبة الكلبية، كما تدل أيضا على معنى صاحب القلعة [2].

والجدير بالإشارة أيضا أن النظــام الإداري النورمــاني ظــل متأثرا بالنمط الإسلامي حيث تشبه رجار الثــاني بملــوك المــسلمين وعاداتهم، حتى قيل أنه كان سلطانا عربيا بتاج إفرنجي، مما يعكــس جنوحه نحو سياسة التوازن والسلم الاجتماعي.

**3- العادات الاجتماعية للأقلية الإسلامية بصقلية والتغيــرات التــي طالت بعض القيّم:**

لا يفوتنا ونحن بصدد معالجة الوضــعية الاجتماعيــة للأقليــة المسلمة بصقلية الإشارة إلى بعض عادات الأقليــة الإســلامية التــي احتفظت بها المصادر. فقد أورد ابن جبير بعــض الروايــات حــول أشكال السلوك والفضائل والقيّم لــدى فتيــان القــصر المــسلمين.

---

[1] حسان حلاق، م.س، ص 123.
[2] إحسان عباس، م.س، ص144.

ويستشف من خلال شهاداته، أن معظمهـــم كـــان متمـــسكا بـــشريعة الإسلام، متميزا بأخلاق رفيعة، وتمسك قوي بأهداب الدين. ولا غرو فقد أشاد بأخلاقهم، فبين أن لهم ((في فعل الجميل أخبـــار مـــأثورة، وفي افتكاك الأسرى صنائع عند الله مشكورة، وجميع خدمتهم علـــى مثل أحوالهم... ومن عجيب أخبارهم أنهم كـــانوا يحـــضرون عنـــد مولاهم، وعندما يحين وقت الصلاة يخرجون على دفعات من مجلسه فيقضون صلاتهم))[1]. ومن العادات التي أشاد بها ابـــن جبيـــر عـــادة الكرم، حسبنا دليلا على ذلك ما ذكره حول أحد زعماء مسلمي صقلية وهو القائد أبو القاسم بن حمود الذي كان يتميز بعادة الكرم، حتى أنه كان يمدّ الحجاج بكل أنواع المعونات تسهيلا لهـــم للحـــصول علـــى المأوى والزاد في طريقهم للحج[2]. ناهيك عن تميّـــز فتيـــان القـــصر وغيرهم بعادة الصوم تطوعا. أما الصوم في شهر رمضان فقد كشف الرحالة ابن جبير عن حرص مسلمي مدينة باليرمو على صيام شهر رمضان وعدم الإفطار إلا بعد رؤية هلال شوال؛ فعند ثبوت رؤيتـــه يرفع الخبر إلى حاكم المدينة ليخبر الساكنة مـــن المـــسلمين بإقامـــة الاحتفال بالعيد في اليوم الموالي[3]. أما في حالة عـــدم ثبوتـــه بـــسبب الغيوم وأحوال الطقس المضطربة أحيانا في صقلية، فقد طرح علـــى

---

[1] ابن جبير، م.س، ص269.
[2] الصدرنفسه، ص280.
[3] المصدر نفسه، ص 276.

مسلمي صقلية إشكال ديني يتمثل في الزيادة في أيام الصوم، وهو ما تناولته بعض النوازل الفقهية رغم قلتها، من ذلك نـص نازلـة ورد ذكرها عند الونشريسي الذي نقلها عن فقهاء ومفتين معاصرين للحقبة مدار البحث، وتتضمن سؤالا حول هل يصح ((زيادة يوم في الصوم، وكذا سمعنا أنه وقع في صقلية))[1].

والجدير بالملاحظة أن بعض العادات الأخرى، خاصـة فـي مجال الأزياء والأطعمة انتقل تأثيرها إلى البلاط النورمـاني، وإلـى بعض سكان صقلية. ولا غرو فقد تـأثرت نـساء مدينـة بـاليرمو بالأزياء العربية حتى أنهن كن يقتدين بالنساء المسلمات فـي بعـض أشكال الملابس، ويتزين بـالحلي، ويتخـضبن بالحنـاء ويتعطـرن بالعطور العربية [2].

كما أن بعض الأطعمة العربية وطرق الطبخ وجدت طريقهـا إلى المطبخ الصقلي، بل صارت مثار إعجاب من قبـل الـصقليين، ينهض دليلا على ذلك أن ملك صقلية غليام الثاني ذاته كلّف عددا من المسلمين بإعداد وطهي طعامه، مما يعكس ولعه وتأثره بطرق الطبخ العربي. كما بلغت درجة التأثر بالعادات العربية أن بعض الجـواري

---

[1] المعيار، ج1، ص 421.
[2] ابن جبير، م.س، ص 274.

المسيحيات داخل قصره تأثرن بالجواري المسلمات، وبأسلوب دعوتهن فاعتنقن الإسلام[1].

غير أن بعض العادات والقيَم الإسلامية الأخرى تعرضت لرياح التغيرات في خضم تحولات المجتمع الصقلي الجديد. وفي هذا المنحى، تمكن ابن جبير من فتح ملف خطير واجهته الأقلية المسلمة بصقلية، ويتعلق الأمر بتعرض الأسرة المسلمة إبان الحقبة موضوع الدراسة لخطر التفكك والانحلال، حيث تغيرت فيها مواقف الأبناء والزوجة تجاه الأب، ولم تصبح الطاعة الواجبة التي تؤطرها المرجعية الدينية قاعدة سلوكية ينهجها أفراد الأسرة. وصار بمقدور الأبناء إذا لم يرضخ الأب لطلباتهم أو وقع توتر بين الطرفين أن يهددوه بالتنصر كورقة لفرض الأمر الواقع. كما كانت الزوجة أيضا تستعمل نفس الورقة ضد زوجها وتستعملها الابنة لتهديد أمها[2]. والحاصل أن كل "متمرد" على قانون سلوكيات الأسرة المسلمة كان يتوعد بالذهاب إلى الكنيسة للتعمد والتنصر، خارجا بذلك عن المرجعية القرآنية القاضية بطاعة الابوين[3] وعن القيَم الأسرية التي تحترم "سلطة العمر" وتقتضي خضوع الصغير للكبير، مما جعل الآباء مضطرين إلى مداراة أبنائهم. ونتيجة لذلك تخلخلت قيَم الأسرة،

---

[1] نفسه، ص 268

[2] ابن جبير، م.س، ص280.

[3] سورة الإسراء، آية 23 – 24 – سورة لقمان، آية 14

وتبعثرت الأوراق التربوية لتغرق تلك الأسرة في دوامة الانحلال والتفسخ، وهي ظاهرة تنبه ذوو الرأي والحكمة من المجتمع الإسلامي بصقلية لخطورتها، وحذروا من مغبة تفشيها في كيان الأسرة المسلمة الصقلية. ولا يمكن تقدير هذه الأزمة الأسرية إلا بالرجوع إلى عقلية تلك الحقبة، وهي العقلية التي نستشفها من رد فعل ابن جبير لما علم بهذا الأمر فعلق عليه بقوله: ((فتخيل حال من يمنى بمثل هذا في أهله وولده، ويقطع عمره متوقعا لوقوع هذه الفتنة فيهم، فهم الدهر كله في مداراة الأهل والولد خوف هذه الحال))[1].

وتجدر الإشارة إلى أن النصوص العربية، خاصة رحلة ابن جبير، زودتنا بمعطيات نصية في غاية الأهمية حول بعض العادات الدينية والاجتماعية للأقلية الإسلامية في صقلية من قبيل الاحتفالات بالأعياد الإسلامية وما يرافقها من طقوس تعكس الذاكرة الإسلامية، إلا اننا سنرجئ معالجتها إلى المبحث الخاص بالتسامح باعتبارها احتفالات كانت تقام أمام سمع وبصر السلطات المحلية في بعض المدن الصقلية.

صفوة القول أن المشهد الاجتماعي لصقلية عرف تحولا نوعيا في ظل السيادة النورمانية، إذ تغيرت المعطيات بسبب التحركات البشرية الجديدة، وما تركته من أثر في وضعية الأقلية الإسلامية التي

---

[1] ابن جبير، م.س، ص280

فقدت وزنها الاجتماعي، وتحولت إلى أسفل السلّم الاجتماعي بعد أن كانت تتسنّمه، مما جعلها تجنح نحو ترك صقلية، خاصة بعد أن تعرضت هويتها للطمس، وقيمها الاجتماعية للتشويش، مما فرض على أفرادها تغيير أسمائهم العربية وكتمان هويتهم الدينية، ناهيك عما تعرضت له من خطر التفكك الأسري والاغتراب، وانعدام القيم المتوارثة داخل الأسرة المسلمة التي بدأت تنسلخ عن ثوابتها وقيمها الإسلامية.

## المبحث الرابع:

# الوضعية الاقتصادية للأقلية الإسلامية بصقلية

لا يتأتى رسم الخطوط الأولية لنظام القول في الوضعية الاقتصادية للأقلية الإسلامية بصقلية إلا بالوقوف على التحولات التي عرفها الاقتصاد المتوسطي بعد الاحتلال النورماني للجزيرة التي نعتبرها بكل المقاييس موجهات ناظمة ودليلا مرشدا لفهم وإدراك تلك الوضعية. لقد تغير المشهد في البحر المتوسط بعد انفلاته من السيطرة الإسلامية رأسا على عقب، وهو ما سجله ابن خلدون في إيجاز رائع وصف فيه المفارقة التي يلحظها – دون عناء– كل متتبع لأحوال المجال المتوسطي في تلك الحقبة التاريخية، وما كان للمسلمين من قوة بحرية وتجارية وسيادة كاملة على هذا المجال، قبل أن تنهار بعد الغزو النورماني الذي شكل لحظة فاصلة في ذلك المسار التاريخي. يقول ابن خلدون في هذا الصدد متحدثا عن المسلمين:

((وسارت أساطيلهم فيه (البحر المتوسط) جائية وذاهبة والعساكر الإسلامية تجيز البحر في أساطيلهم من صقلية إلى البرّ الكبير المقابل لها من العدوة الشمالية كما وقع في أيام بني أبي الحسن ملوك صقلية القائمين بدولة العبيديين، وأغارت أمم النصرانية بأساطيلهم إلى الجانب الشمالي الشرقي منه من سواحل الإفرنجة

والصقالبة وجزائر الرومانية لا يعدونها، وأساطيل المسلمين قد ضربت عليهم ضراء الأسد بفريسته))[1] .

بيد أن هذا الوضع تغير جملة وتفصيلا بسقوط صقلية، فتحول البحر المتوسط من السيادة الإسلامية ليصبح في حوزتهم، وهو مشهد جديد عبّر عنه الشاعر أبو العرب الصقلي بقوله:

لا تعجبنّ لرأسي كيف شاب أسى//واعجب لأسود عيني كيف لم يشب

البحر للروم لا تجري السفين به // إلا على غرر والبر للعرب[2]

لقد تمخض عن هذا التحول الذي شهده المجال المتوسطي لا عن ميل كفة ميزان القوى لصالح النورمان فحسب، بل زاد من عزلة مسلمي صقلية، وجعلهم في محيط اقتصادي لم يألفوه، ودمرت قراهم تحت وطأة الغزو، وقتل عدد من الفلاحين المسلمين، وفرّ بعضهم تحت التهديد وشتى ضروب الإكراهات، بينما أصبح المسلمون الذين بقوا مقيمين في صقلية يعيشون في ظل نمط فيودالي جديد على غرار ما كان سائدا من نظم إقطاعية في جهات أخرى من أوروبا، ترسخه جملة من التشريعات والقوانين التي كانت تصب في مصلحة السادة الإقطاعيين، وهي معطيات سيكون له وقع عميق على نفسيتهم، وبالتالي على وجودهم وهويتهم.

---

[1] ابن خلدون، كتاب المقدمة، دار إحياء التراث العربي، بيروت (د.ت)، ص 254.

[2] الأبيات الشعرية التي نظمها هذا الشاعر : اقتباسا من إحسان عباس، العرب في صقلية، ص 413.

## 1 – النظام الفيودالي ومصادرة أراضي الأقلية الإسلامية:

لعلّ أبرز التحولات التي بصمت تاريخ صقلية بعد نهاية الحكم الإسلامي واستيلاء النورمان عليها، وفقدان المسلمين لسيادتهم على شرايين التجارة المتوسطية، يكمن في ظهور النظام الفيودالي كنظام مؤطر للعلاقات الاقتصادية بصقلية على غرار ما كان سائدا في أوروبا الغربية، ومدعّما بقوانين وتشريعات انقسم بموجبها المجتمع الصقلي إلى طبقات اجتماعية جديدة يحتل قمتها الملك، يليه الأمراء والدوقات والكونتات والبارونات ثم الفرسان الذين أقطعت لهم الأراضي، فالفلاحون الأحرار نسبيا، وهم الذين يتشكلون من السكان القرويين والمجموعات المزارعة المعبّر عنهم باسم ((الرّحل))، وهو مصطلح انفردت به صقلية والأندلس للدلالة على المجموعات الزراعية الصغرى التي يتراوح عددها ما بين أربع إلى مائة عائلة [1]، بينما يقبع رقيق الأرض الفاقدون لكل حرية والتابعون للنبيل الإقطاعي في أسفل الهرم الاجتماعي.

بيد أن الإقطاعية المحلية بصقلية تميزت – كما لاحظ ذلك الباحثون– عن باقي الإقطاعيات في أوروبا الغربية بكونها فيودالية أوروبية ذات نزعة عسكرية. وتعدّ متخلفة مقارنة مع البنية الحضرية السائدة من قبل. وسنلاحظ أن دخول النظام الفيودالي كنمط

---

[1] محمد حسن، الجغرافية التاريخية م.س، ص185، 189.

إنتاج اقتصادي لصقلية أحدث انقلابا في حيـاة الأقليـة الإسـلامية، خاصة أنهم كانوا يشكلون الغالبية العظمى في القرى الصقلية [1].

ومما يترجم هذه الوضعية الجديدة أن النظـام الإداري للدولـة النورمانية مثّل هذا التحول، فكان من بين الدواوين التي انبثقت مـن النظام الجديد مؤسسة عرفت باسم ديوان التحقيـق المعمـور، وهـو الديوان الذي كان يعني بشؤون الأرض والرقيق التابع لها، حيث كان يجري تسجيل كل المعلومات بهذا الصدد في سجلات عرفـت باسـم الدفاتر Daftari، وهو مصطلح مشتق من لفظ الدفاتر العربية، تـسجل فيها الأراضي المقطعة ومساحاتها وعدد الأرقاء المرتبطين بها. كمـا عرف هذا الديوان في اللاتينية باسـم Dohana Secretis الـذي يـرى بعض الباحثين [2] أن جذوره ترجع إلى الحقبـة الفاطميـة، وإن كنـا نرجح أن مهامه قد تغيرت في ظل الحكم النورماني بـسبب هيمنـة النظام الفيودالي.

وعلى كل حال، فإن النظام الفيودالي الذي ساد خلال هـذه المرحلـة التاريخية بصقلية أدى إلى تقلص أراضي الأقلية الإسلامية وتحويلهـا لصالح الإقطاعيين والنبلاء بثلاث وسائل:

---

[1] إحسان عباس، العرب في صقلية، ص141.

[2] المرجع نفسه، ص147.

- مصادرة أراضي الأقلية الإسلامية:

ما إن انتهت آخر حلقة من حلقات الغزو النورماني حتى أقبل الكونت رجار الأول على مصادرة أراضي المسلمين، وهو ما عبّر عنه المؤرخ النويري بقوله: ((وملك رجار الجزيرة، وأسكنها الروم والفرنج مع المسلمين، ولم يترك لأحد من أهلها حماما ولا دكانا ولا طاحونا))[1]. و يسمح هذا النص باستنتاج معطيين أساسيين:

أولاهما: أن رجار الأول صادر أملاك المسلمين بجميع أنواع العمران التي كانت تشملها الممتلكات (حمامات، دكاكين، طواحين وغيرها من الممتلكات)، مما يدل على شمولية المصادرة، وأنها أتت على كل ممتلكات الأقلية الإسلامية دون استثناء.

وثانيهما: أن المصادرة صحبتها عملية استيطان إفرنجية حيث أشرك الملك الصقلي وافدين جددا في تعمير الأراضي التي لم تعد ملكيتها خاصة بالمسلمين.

كما استغل وجوده على رأس المؤسسة الفيودالية ليقطع ما صادره من أملاك الأقلية الإسلامية لفائدة أقربائه وحاشيته والمقربين إليه، مما أدى إلى تفاقم أوضاع المسلمين الاقتصادية والمعيشية،

---

[1] النويري، نهاية الأرب، ج 24، ص383- انظر أيضا بنفس الرواية : ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج8، ص159.

وحسبنا أن قرى بأكملها دمرت أثناء الغزو النورماني، وهجر العديد من الفلاحين المسلمين أراضيهم[1]

وفي سنة 486 هـ / 1093م، عقد رجار الأول اجتماعا في مدينة مازر حضره السادة والنبلاء من رجاله، وسلم كل واحد منهم " جريدة " صيغت باللغتين العربية واليونانية تتضمن وصفا للأرض المقطعة لهم، وبيانا بعدد الفلاحين والأرقاء التابعين لأرضه والمعروفين ((برجال الجرائد)) Villains، وبذلك حول المزارعين المسلمين إلى أقنان. ويستشف من نص أورده ابن جبير أن رجال الكنائس استفادوا من الإقطاعات الواسعة التي أقطعهم إياها غليام الثاني بعد ذلك. يقول في هذا السياق: ((وكم له بجهاتها من ديارات قد زخرف بنيانها، ورفّه بالإقطاعات الواسعة رهبانها))[2].

وإذا كانت هذه وضعية الأقلية الإسلامية المستوطنة في الأرياف، فالأمر لم يكن بهذه الحدة بالنسبة للحواضر. فمن الراجح أن بعض الملاكين الكبار في المدن قد تركت لهم أراضيهم يتصرفون فيها بحرية[3]. ويشار إلى هذه الفئة المحظوظة في الوثائق اللاتينية إشارات تثبت أنها كانت تشمل بعض الموظفين المدنيين والعسكريين

---

[1] امين توفيق الطيبي، دراسات وبحوث في تاريخ المغرب والأندلس، ص47.

[2] رحلة ابن جبير، ص 273

[3] عزيز أحمد، تاريخ صقلية الإسلامية، ترجمة أمين توفيق الطيبي، الدار العربية للكتاب، ليبيا-تونس 1980 ، ص81.

من قبيل الموثقين والقضاة، والقادة الذين عرفوا باسم Gayti، ومعناها قائد من قادة الجيش أو قائد مقاطعة إقليمية، وهي الفئة التي أضيفت إليها بعض الإقطاعات [1]. ويحتمل أن تكون هذه الامتيازات وسيلة من وسائل استقطابهم لضمان ولائهم للدولة الحاكمة. ونذكر على سبيل المثال من بين هؤلاء القادة القائد أبو القاسم بن حمود الذي كانت له أملاك وعقارات ورثها عن سلفه، قبل أن يثير حفيظة غليام الثاني فيصادرها منها [2].

ويبدو أن بعض الملاكين من المسلمين تقربوا من بعض ملوك صقلية حفاظا على أراضيهم، فرجار الأول أبقى على أملاكهم، وهو ما يفسر قول الإدريسي [3]عند وصفه لعلاقة هذا الملك مع رعاياه في صقلية بالقول أنه أمنهم في أنفسهم وأحوالهم وأهليهم، وأن ((أحكامه أعدل الأحكام)).

بيد أن هذا النص لا ينطبق على الأقل على عهد من جاء بعده من الملوك كغليام الثاني الذي صادر أراضي بعض المسلمين ومن بينهم القائد أبي القاسم بن حمود المذكور الذي ((توالت عليه مصادرات أغرمته نيفا على الثلاثين ألف دينار مؤمنية، ولم يزل

---

[1] Guichard, L'Espagne et La Sicile musulmane au XIe et XII e siècle, (2ed), Presse universitaire de Lyon 1991, p75.

[2] ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص280.

[3] نزهة المشتاق ، م.س، ج1 ص 4

يتخلى عن جميع دياره وأملاكه الموروثة عن سلفه حتى بقي دون أملاك))[1]. ومع أن هذا الملك عفا عنه وأرجعه إلى منصبه حسب شهادة ابن جبير الذي التقى به، فإننا لا نعرف إن كان قد أعاد إليه كل ممتلكاته، وهو أمر نستبعده نظرا للحالة النفسية المنهارة التي بدت واضحة عليه من خلال حواره مع ابن جبير الذي وصفه ((بالمغلوب على نفسه وماله)) [2]، إشارة إلى أنه لم يسترجع كل ما صودر منه من ممتلكات رغم العفو الملكي.

على كل حال، فإن جل أراضي المسلمين المصادرة أقطعت لرهبان وأساقفة الكنائس ورجال الدين والنبلاء، وهو ما تؤكده المصادر العربية والوثائق اللاتينية. ففي حديث ابن جبير عن الملك الصقلي الآنف الذكر ، يذكر أنه أقطع الأراضي الواسعة لرهبان مدينة باليرمو[3]. وكان رجار الثاني قبله قد أقطع مجموعة من الإقطاعات لكنيسة سانت بارثليمي Saint Barthlemy، كما يشهد بذلك عقد إقطاع مؤرخ ب 26 فبراير 1133م كتبه موثق يدعى Guy، وفيه تمّ تعيين الأرض المقطعة، وتحديد مساحتها، والقائمين بفلاحتها[4]. كما

---

[1] ابن جبير، م، س، ص280.

[2] نفس المصدر والصفحة.

[3] المصدر نفسه، ص273. انظر أيضا :

-Calrichard Bruhl (ed) , RogerII Rgidiplomata latina Cologne-vienne1987, document 24,p 66-68.

[4] عزيز احمد، م.س، ص 80 – انظر أيضا :

يتضمن هذا العقد إقطاع رجار الثاني قصر مريتو Casar de Mirto لمطران ليباري Lipari[1].

- التنازل الإجباري عن الأراضي:

تعرضت الأقلية الإسلامية في صقلية لأبشع خرق حقوق الإنسان في مجال الممتلكات حين أجبرتها السلطة النورمانية على ترك أراضيها والتنازل عنها تحت طائلة التهديد والإكراه. وقد أغفلت الدراسات التاريخية المعاصرة هذه المسألة الحقوقية التي تحتاج إلى دراسات وافية قبل أن تحشر في طي النسيان. ولحسن الطالع أن ثمة عقودا أوردها "سلفادور كوزا" Salvador Cusa تلقي شعاعا من الضوء حول هذه القضية المسكوت عنها.

وتأسيسا على العقود المذكورة، يتأكد أن بعض المسلمين أجبروا على التنازل عن أراضيهم لصالح كبار الفيوداليين، من ذلك عقد يتضمن أسماء ثلاثة إخوة من المسلمين وهم إبراهيم وجبرون وعبد الرحمن الذين أقروا جميعا أمام قس Tabat بأنهم سيخلصون إلى سيدهم ويطيعون الكنيسة، وأن القس المذكور عفا عنهم، وردّ لهم جزءا من أراضيهم وممتلكاتهم التي صادرها منهم، شريطة أداء ضريبة قدرها عشرون قرط دينار سنويا، وعشرون مدا من القمح،

---

Guichard, Op.Cit, p78,79.

[1] محمد حسن، م.س، ص 182

وعشرة أمداد من الشعير. وقد طلبوا من السيد أن يسكنوا أينما شاءوا، وأن يؤدوا للكنيسة ما تم الاتفاق عليه، وهذا نص الوثيقة:

((حضر جبرون وأخوه ابراهيم وأخوهما عبد الرحمان بين يدي الأباط (Abbé Thébatd) أعزّه الله......وحلفوا بحضرة المصحف أنهم من هذا التاريخ لا يهونوا ولا يخونوا مولاهم ولا يخرجوا عن طاعة الكنيسة أبدا. وقد غفر لهم الأباط وعفا عنهم، وردّ عليهم الذي أخذ لهم وجعل عليهم جزية في الحوال 30 رباعي وقانون 20 مدّ قمح وعشرة شعير. وسألوا المولى الأباط أعزّه الله أن يسكنوا حيث يريدوا ويوصلوا هذا الطلب للكنيسة بجميع ما ذكر....شهد بذلك أبو الفرح بن سلام اللخمي وأحمد القيسي وأبو الجمعة القرشي وعلي بن يعلى القرشي)).

ويستنتج من هذا العقد أن مراسيم الولاء بين السيد الإقطاعي والقن التابع لإقطاعه كانت شبيهة بمراسيم الولاء في عقود القيودالية في غرب أوروبا، مع اختلاف قسم الولاء الذي كان يتم في صقلية بواسطة المصحف.

وجاء في عقد آخر مؤرخ ب 10 ابريل من العام الهجري 543، ان خمسة من المسلمين تنازلوا عن أملاكهم لفائدة الكنيسة المسيحية وهم علي بن الرعادي، وعبد النبي بن الجريري وإبراهيم دسال وعبد الرحمن بن حسبواس وأولاد عبد الرحمن بن علالي. وقد تمّ تنفيذ هذا التنازل الإجباري نتيجة ضغط من السلطة الحاكمة، وهو ما يؤكده

النص الوارد في العقد: ((خرج للأمر العالي المطاع زاده الله علا، ومضا لديوان التحقيق المعمور بان يعطى لرهبان الكنيسة من الربع الديواني برسم حرث اربعة ازواج ما يبلغ مائة وعشرين مدان وذلك برسم الربعة الذين بأيديهم من جملة الخمسة رجال التي اعطيت للكنيسة....))[1].

ولعل فحص مفردات اللغة التي صيغ بها العقد تكشف هذا التنازل الإجباري، " فالأمر العالي" يحيل على سلطة " آمرة" لا يعلى عليها، ولا يرد لها أمر. كما أن صيغة الأمر بالعطاء يحيل على مفهوم "الإكراه" والقرار "الآمر" الذي لا يقبل النقاش، ولا يكون موضع جدل أو أخذ وردّ.

وقد تمّت إعادة كتابة هذا العقد سنة 549 هـ لتأكيد الأمر الواقع، وتزكيته بالشهود مسلمين ونصارى. والتزكية بالشهود -مسلمين ونصارى- هي صيغة من صيغ التقنين الملزم للطرف المتنازل. كما أنه يجسد صيغة من القبول بالأمر الواقع، يصبح بموجبه التنازل عملية حبّية بين الطرفين، ولا يسمح للطرف المتنازل

---

[1] ورد العقد في وثائق المكتبة المركزية لمنطقة صقلية:

La Biblioteca centrale della regione Sicilan, No III.

وقد أوردها عبد الهادي التازي في كتابه: التاريخ الدبلوماسي من أقدم العصور إلى اليوم، مطبعة فضالة المحمدية 1987.ج6، ص 242، والباحث رمضان المبروك الصيد في أطروحته: العلاقات العربية الصقلية،، ج2، ص 491.

عن أرضه بالمطالبة بها مستقبلا، أو الادعاء أنها اغتصبت منه. فيصبح بذلك مجردا من كافة حقوق ملكيتها.

وثمة عقد آخر مؤرخ بسنة 544هـ/1149م، التنازل عن الأراضي لصالح الكنيسة واستخدام بعض المسلمين كمزارعين مكلفين بخدمة الأرض وتعهدها بالبذر والزرع، وهذا مقتطف مما جاء في نص العقد كما أورده Salvador Cusa:

(( رحل الوزان بإقليم جاطو lato تسليم الأرض الدولية لرهبان كنيسة الهرمز سنة 544هـ/1149م، وتكليف خمسة من المسلمين اثنان خرش والثلاثة ملس ببذر 120 مدا وأربعة أزواج بقر)).

والغريب أن يرد في بعض العقود إشارة صريحة إلى أن هؤلاء المسلمين تنازلوا "طوعيا" عن حقوقهم في الأراضي التي كانت بحوزتهم، و"برغبة وإرادة منهم"، وهم في صحة من عقلهم وجسدهم، وهي عبارة يمكن أن نتعامل معها بكثير من التحفظ نظرا لانعدام المساواة بين طرفي العقد المبرم. كما يرد في آخر العقد أسماء الشهود المسلمين الذين حضروا كتابته وهم أحمد بن أبي القاسم القيسي وأبو جمعه محمد القرشي وعلي بن يعلي [1]. ويبدو من خلال

---

[1] Salvador Cusa , I diplomi grecied arabi di Sicilia , Palerme 1868-1881 – réed Cologne_ Vienne 1982, texte Arabe p111_119 :Guichard, op.cit , p78,79.

تفاصيل العقد أن ثمة شروطا مجحفة تعيد إلى الأذهان قسوة النظـام الفيودالي وتحكم السيد الإقطاعي في أتباعه.

**- البيع القسري لأراضي المسلمين:**

إلى جانب هذه العقود التي تثبت التنازل الإجباري عن الأرض لصالح المالك الفيودالي النورماني، ثمة شكل آخر من العقود العقارية التي تثبت بيع المسلمين لأراضيهم بطريقة أقرب إلى البيع القـسري من البيع الاختياري، وهي عقود تتسم على العمـوم بـنفس الـصيغة المتضمنة للبسملة، وذكر اسمي المشتري والبائع، واسم العقار الـذي جرى فيه البيع وسعره، وذكر شـهود المتعاقـدين وتـاريخ البيـع، واستيفاء المبلغ وتسليم العقار والـضمان. وقـد أورد Salvador Cusa عددا من هذه العقود يطول بنا المقام لعرضها أولا بأول، لذلك نقتصر على الإشارة إلى بعض منها:

- عقد رقم 1: شراء راو القسيس بكنيسة القصر من أبي بكـر وأحمد الجاغين ولدي عمر الأزدي، ومن عمر بـن عتيـق القيـسي جميع الدار داخل القصر القديم سنة 506هـ /1167م. وقـد أعطتـه زوجته توكيلا ببيع حقها وحق أختها في الـدار أيـضا إلـى نفـس المشتري، مع تفويض قاضي صقلية أبو القاسم عبد الرحمن بن رجا بالتصرف بما يلزم بع حكم تدبير البيع.

ويستشف من مضمون العقد أن بعض المسلمين الصقليين كانوا يفوضون أحد القضاة المسلمين تدبير عملية البيع. كما جرى الحرص

على تحديد الأرض المباعة تحديدا دقيقا بتعيين مدخلها وحدودها ومرافقها ومخرجها. ويعرّفنا العقد أيضا بسعر بيع هذه الأرض الذي بلغ ((ثلثمائة رباعي في النعت والوزن))، وهو رقم لا يفصح عما إذا كان سعرا مناسبا، أم سعرا يجعل هذا البيع في خانة " بيع الكره" كما هو متداول في لغة الفقهاء.

بيد أن بعض المصطلحات الواردة في نص العقد تشي بأن البيع تمّ بالتراضي، من ذلك على سبيل المثال ((وأبرئ البائعون المذكورون راو القسيس المشتري المذكور من الثمن المذكور براءة تامة))، وأن البيع تمّ بعد ((النظر والعيان والخبرة والبيان والمشاهدة والتقليب، وبعد العلم منهم بذلك والإحاطة بكليته، عقدوا هذا التبايع المذكور بينهم بعد أن تجاوزوا فيه فتثبتوا على إجازته بينهم وإمضائه عليهم والرضى به والقبول)). كما ترد في نص العقد بعض العبارات التي تثبت ان البيع تمّ بالتوافق والرضى من قبيل: ((وصدقوا شهادة الشاهدين المذكورين، واعترفوا بصحتها وثباتها))، ناهيك عما يحمله العقد من أسماء الشهود الذين حضروا عملية البيع، وإقرار القاضي بصحته.

وفي نص عقد آخر مؤرخ بتاريخ العشر الأول من شهر ربيع الأول من سنة 589ه، نجد خبر بيع مسلم يدعى إبراهيم بن محمد القرشي لأرض بقلعة قصريانة، اشتراها منه رجل نصراني يدعى "جيلو"، ويتضمن معطيات حول حدود الأرض التي اشتراها، وثمن

البيع الذي بلغ ((أربعة واربعون رباعيا عيونا ذهبا جيدا سكّية ملكية جواز صقلية))، مع تأكيد صحة البيع، وموافقة الطرفين (البائع والمشتري) على ما ورد فيه في نص العقد موافقة تامة ورضى متبادل، وأضيف في آخر العقد أسماء سبعة شهود شهدوا بصحة البيع[1].

– عقد رقم **13**: رحل عين بالليان إقليم ثرمة: وهبة الملك غاليام على الإسبطال** المستجد بخندق القيروز ((أنعم به إنعاما مؤبدا))، وفيها ستة من الرجال الخرشي وثمانية من الغرباء والملس (من المسلمين)، 14 اسما في الجملة، على أن تبقى الأرض بأيدي هؤلاء المزارعين ويؤدوا إلى المستشفى من الأعطية ما كانوا يؤدونه إلى العمال.

– عقد رقم **17**، وهو[2]عقد شراء غرتيل النصراني دارا بداخل القصر القديم من علي بن أبي القاسم بن عبد الله العطار المعروف بابن الباروقي وأمه سيدة بنت يوسف القيسي سنة 531هـ / 1136م.

---

[1] La Biblioteca centrale della regione Sicilan, No III.
رمضان المبروك الصيد، م.س، ج2، ص 494.
* معناه المستشفى

[2] -Guichard, Op.Cit, 76-77.-،
Salvador Cusa , diplomi, p111-112 : اقتباسا من محمد حسن، م.س، ص 184-186.

وثمة عقود بيع أخرى تعكس عمليات بيع " أجبر" عليها بقايا سكان صقلية المسلمين لفائدة نصارى صقلية مؤرخة بشهر رجب 506ه، وجمادي الأولى سنة 526ه، وربيع الأول سنة 528ه، وشهر ذي القعدة 531ه، تدور حول بيع ديار واستغلال عيون المياه للسقي، وتعامل مع أمناء التجار، وغيرها من التعاملات في المجال الاقتصادي[1].

إن وضع هذه العقود وغيرها تحت مبضع الفحص والنقد، تكشف أنه رغم ما ورد فيها من صيغ تحيل على القبول والتراضي بين الطرف البائع والطرف المشتري، فإنها لم تبرم على أساس المساواة والندية بين طرفي العقد، وأن الهدف الأساسي من عمليات البيع يكمن في تجريد الأقلية الإسلامية من ممتلكاتها بطريقة تتدثر بعباءة القانون، بينما هي في الواقع استيلاء مموه على تلك الأملاك للحد من أي نفوذ اقتصادي محتمل للمسلمين. ومما يشفع في هذا الاستنتاج أن الطرفية التي كانت تمر بها الأقلية الإسلامية في صقلية من ضعف ووهن، وتهجير واضطهاد كما سيتبين لنا في المباحث القادمة، ووجود الكنسية كطرف قوي في عملية البيع، بما تمثله من سلطة دينية واقتصادية متحكمة في شرايين المجتمع الصقلي، ومسنودة من السلطة الحاكمة، كل ذلك من شأنه أن يسمح لنا بتأويل

---

[1] انظر نصوص هذه العقود عند: عبد الهادي التازي، م.س، ج5، ص 212 – 215.

أن عمليات بيع الأراضي من قبل الأقلية الإسلامية في صقلية قد تمت تحت الضغط والإكراه، وان القضاة الذين كتبوا تلك العقود كانوا يقومون بذلك مجبرين، وبالتالي فإنها عقود مزورة، إذ في ظاهرها رضاء وقبول من طرف البائع، وفي باطنها إكراه وإلزام قسري من الطرف الأقوى الحائز للأراضي.

## 2 – استخدام المسلمين كرقيق لخدمة الأرض:

إن تحول مجموعات من الأقلية الإسلامية في صقلية بعد الغزو النورماني إلى عبيد مسألة لم يسبر غورها بشكل عميق في الدراسات العربية المعاصرة مع بعض الاستثناءات التي تمثلها دراسات بعض الباحثين[1]. ومن نافلة القول أن هذه الظاهرة تمّ تهميشها إلى حد كبير في المصادر التاريخية العربية التي لاذت بالصمت حولها باستثناء بعض العبارات الملتبسة التي وردت بصددها، مما يشكل ثغرة عميقة في تاريخ الحرية العربية التي ينبغي ملؤها. والجدير بالملاحظة أن الوثائق اللاتينية أنارت هذا الجانب المعتم، وهي الوثائق التي أفاد منها الباحث الفرنسي Pierre Guichard، ووظفها في دراسته التي سنعتمد عليها.

بعد إتمام سيطرته على جزيرة صقلية ومصادرة أراضي الملاكين المسلمين، سعى النظام الحاكم إلى تحويل من بقي مقيما

---

[1] مثل دراسات كل من إحسان عباس ومحمد حسن المعتمدتين في هذه الدراسة.

بأراضي المسلمين إلى عبيد أرقاء، وهم الذين تسميهم الوثائق الصقلية باسم Villani– Villeins، ويقابلها في الوثائق العربية اسم ((رجال الجرائد)) الذين كانوا يتكونون من الفلاحين الكادحين الذين يشبه وضعهم وضع الرقيق، ويخضعون لنظام السخرة، ويجبرون على أداء الخدمة العسكرية إلى جانب الضرائب التي كانوا يؤدونها مرتين في السنة للنبلاء وأصحاب الإقطاعات، وهو ما يستنتج من خلال النص الهام الذي أورده ابن جبير حول وضعية المزارعين المسلمين، وعلاقتهم بملاك الأرض الإقطاعيين في ظل حكم الملك غليام الثاني حيث أورد هذا الرحالة نصًا طريفا يلقي بعض الضوء على وضعية رجال الجرائد: ((والمسلمون معهم على أملاكهم وضياعهم، وقد حسنوا السيرة في استعمالهم واصطناعهم، وضربوا عليهم إتاوة في فصلين من العام يؤدونها، وحالوا بينهم وبين سعة في الأرض كانوا يجدونها، والله عز وجلّ يصلح أحوالهم))[1].

يفهم من هذا النص أنه بعد انتزاع الأراضي من الأقلية الإسلامية في صقلية تحول المزارعون المسلمون إلى مجرد مزارعين مستخدمين تابعين لسلطة النبلاء الإقطاعيين، وأن العلاقة بين الملاك الجدد والقدامى كانت علاقة رفق بين المالك والمستخدم، مقابل ضريبة ريعية كان يؤديها المزارعون المسلمون مرتين في

---

[1] ابن جبير، م.س، ص 266.

السنة، إلا أنه يبدو من خلال عبارة: ((حالوا بينهم وبين سعة في الأرض كانوا يجدونها))، أن ملكيتهم للأرض لم تعد ملكية خاصة بهم، بل استحوذ عليها النبلاء النورمان.

ويعلق احد الباحثين[1] على هذه الوضعية الجديدة بأن مسلمي صقلية من أهل الجرائد فقدوا كل حرية، ورأى في ذلك اتفاقا بين شهادة ابن جبير وما ذكره " هوجو فلقندو" من أن رجال الجريد (عبيد الأرض بصقلية) كانوا يتكونون من المسلمين واليونان. والعبارة التي ختم بها ابن جبير روايته ((والله عزّ وجلّ يصلح أحوالهم)) غنية بالإيماءات حول وضعية الرق التي كانوا يرزحون تحت نيرها.

والجدير بالإشارة أن النورمان عموما كانوا يقومون بعمليات القرصنة وأسر من كان على متن السفن من الركاب المسلمين وبيعهم كرقيق، ولم تسلم من ذلك حتى النساء. ففي إحدى غارات الأسطول الصقلي على منطقة في ساحل إفريقية سنة 537 هـ، قتل المعتدون عددا من المسلمين وسبوا حريمهم وباعوهن بصقلية[2]. وقد جرت العادة أن يحولوا الأسرى الذين ألقي عليهم القبض إلى عبيد في الضيعات والحقول. وكاد ابن جبير نفسه أن يقع ضحية هذه القرصنة عندما وصلت السفينة التي كانت تقلّه إلى صقلية وهي في حالة

---

[1] إحسان عباس، م.س، ص 143.
[2] ابن الأثير، م.س، ج 9، ص 10 – ابن خلدون، م.س، ج5، ص 204.

غرق، لولا أن الملك غليام الثاني كان حاضرا بنفسه في عملية إنقاذ عدد من ركاب تلك السفينة، بعد أن أشرفوا على الغرق[1].

والجدير بالإشارة أن القانون النورماني كان يؤيد العبودية بصقلية، ففي إحدى الوثائق المؤرخة بسنة 487 هـ/ 1094م، ورد ذكر ثلاثين عبدا مسلما من بين لائحة من أسماء الأرقاء التابعين لكنيسة قطانية [2]. وتثبت إحدى الوثائق العربية من القرن السادس الهجري / 12م أن العرف الجاري كان يسمح بأن يباع الرجل الحر عبدا، فقد تم السماح لجماعة من البحارة أن يحملوا ذهبا من مدينة جفلود إلى مسينة بسيد اسمه وليام، ويرهنوا ممتلكاتهم ضمانا عنه. وكان فيهم رجل يدعى عثمان رهن نفسه من الصراف لأنه لم يكن يملك شيئا آخر، وفي حالة ما إذا تمكّن من دفع المبلغ الذي في ذمته يصبح حرا آنذاك[3].

وحسب القانون النورماني، فإن رقيق الأرض كانوا يصنفون في صنفين: رقيق يتمتعون بالحرية الشخصية، لكنهم مسترقون في العمل الزراعي، ورقيق يباعون مع الأرض وما عليها من دواب وبهائم، ويرد ذكر أسمائهم مع ذكر أنواع الخيل والبغال وغيرها من

---

[1] ابن جبير، م.س ، ص 265.
[2] إحسان عباس، م.س، ص143.
[3] المرجع نفسه، ص 143

الدواب التي تقطع للسيد الفيودالي[1]. وكانت تفرض عليهم خدمات وواجبات من قبيل الخدمة العسكرية وواجب الدفاع عن قلعة السيد كلما شعر هذا الأخير بخطر يتهدد إقطاعيته. وفي حالة زواج امرأة بأحد المنتمين لأهل الجرائد (المزارعون المسلمون التابعون للسيد الإقطاعي النورماني)، كان أبناؤها بحكم العرف والقانون يصبحون أرقاء[2]، وفي كل الأحوال أصبحت العبودية تورث من الآباء إلى الأبناء، مما يؤدي آليا إلى تكاثر أعداد العبيد المسلمين المرتبطين بخدمة الأرض.

ومن الملفت للانتباه أن لائحة الجرائد كانت تتضمن أسماء عبيد عرب مثل محمد وعلي وعبد الله، كما تضم أسماء يونانية ولاتينية [3]، وجميعهم يشتغلون في زراعة الأرض ويدفعون جزية سنوية. وثمة عقد أورده Salvador Cusa يشير إلى أهل الجرائد ومما جاء فيه : ((أنعم الملك للدير بكل رباع قرلون وقلعة الطرزي)). وقد كتب في هذه الجريدة أسماء بعض المزارعين نذكر منها أسماء معروفة من قبل، أو أنها ما زالت متداولة مثل صمود، عقيل، عزوز، حمود بن بويفرن، يعيش بن البربري، البرزولي، الطروس، ابن باديس، الزغندي، ابن السماقي، ابن الكتامي، السماتي،

---

[1] المرجع نفسه،ص 142.

[2] : Curtis, op.cit , p365-66 - إحسان عباس، ص143.

[3] عزيز أحمد، م. س، ص80.

المستاوي[1]. وفضلا عن افتقار أهل الجريد للحرية الشخصية، فقد كانوا أيضا مطالبين بالخدمة العسكرية والدفاع عن السيد الإقطاعي، ويخضعون لنظام السخرة[2].

وكان التصرف بالعبيد كسائر أنواع الملك أمرا معروفا بصقلية حتى أنهم كانوا يباعون أو يهبون أو يقدمون كهدايا مع عائلاتهم وأسرهم دون أي حرج، فعندما عزم رجار والسادة النبلاء على بناء أحد الأديرة بالقلعة، تبرع بالأرض والرقيق دفعة واحدة[3]، دون أي اعتبار للجانب الإنساني.

وقد ضمت الإقطاعية في المتوسط حوالي عشرين رقيقا من رقيق الأرض، بيد أن ثقل الضرائب والإتاوات أجبرت العديد منهم على الفرار إذا ما وجدوا إلى ذلك سبيلا. ورغم أن حكام صقلية تصدوا لظاهرة الفرار وإعادة الهاربين إلى أراضيهم، فإن ذلك لم يجد نفعا، وزاد من تخلف الفيودالية الصقلية [4].

ولمحاصرة انتشار هذه الظاهرة، أحدثوا سجلات لحصر وإحصاء العبيد المزارعين المسلمين فيما يعرف بسجلات الجرائد. وتكشف إحدى وثائق هذه السجلات المؤرخة بسنة 539هـ أن الملك

---

[1] محمد حسن، م. س، ص186.
[2] عزيز أحمد، م.س، ص 81
[3] إحسان عباس، م. س، ص143.
[4] المرجع نفسه، ص190.

رجار الثاني عقد تجمعا حضره العديد من أساقفة الكنائس والقمامسة والترارية من سائر مدن صقلية لتجديد سجلات الجرائد ومراجعتها، وتثبيت الأسماء الواردة فيها. وقد اطلع الملك السالف الذكر على الجريدة الخاصة بالكنسية الكبيرة بمدينة جلفودي، فأمر بتثبيت أسماء الرجال الواردة بها قبل 12 سنة، وقد بلغ عددهم 188، اضيفت إليهم 37 في ملحق آخر من الوثيقة، وضمنها أسماء عربية مسلمة ويهودية. وقد أصدر الملك تعليماته بردّ كل من ثبت أنه مسجّل في جرائد أخرى[1].

وعلى هدي هذه السياسة الرامية إلى ضبط رجال الجرائد، أصدر غليوم الثاني سنة 1183م قرارا يقضي بإرجاع جميع العبيد المزراعين المسلمين الذين كانوا في خدمة الكنائس والنبلاء الإقطاعيين إلى الديوان الملكي، يأمرهم فيه ((برجوع من كان ساكنا من رجال الديوان المعمور الحرام، والمحلات والملس ببلاد الكنائس المقدسة والبارونية بسائر صقلية حماها الله، وانتقالهم منها إلى بلاد الديوان المعمور))[2].

---

[1] La Biblioteca centrale della regione Sicilan, No III.
عبد الهادي التازي، م.س، ج5، ص215 - رمضان المبروك الصيد، م.س، ج2، ص 504.

[2] La Biblioteca centrale della regione Sicilan, No III.
رمضان المبروك الصيد، م.س، ج2، ص 501.

ويفهم من الأمر الملكي الذي أصـــدره الـــبلاط النورمـــاني أن هؤلاء المسلمين كانوا مرتبطين بخدمة القصر الملكي قبل أن يلتحقوا مكرهين للعمل في أراضي كبار الفيوداليين ورجال الكنيسة، خاصــة كنيسة " سانت مرية". غير أن حاجة السلطة إليهم جعل غليوم الثـــاني يأمر بعودتهم إلى الديوان الملكي.

ويبدو من سياق نص الأمر الملكي أن كنسية " ســانت مريـــة" حظيت لوحدها ببقاء بعض رجال الجرائد المسلمين في خدمتها كإنعام خصها به الملك المذكور، وهو ما تعكسه عبارة ((...تبقى جميع مـــن كان ساكنا في بلادها من رجال الكنائس والتراوية الداخلة في حدودها من رجالات المحلات والملس خاصة دون رجال الجرايد على حالهم ويسلمهم إليها والإنعام عليهم بها إنعاما خالصا مؤيدا وعطاء ســالما مخلدا...)).

ويستنتج من هذه العبارة الأخيرة أن العبيد المزارعين المسلمين قد تمّ تمليكهم في صفقة إقطاع ملكية أبدية لـــصالح كنيـــسة "ســانت مرية"، وهو شكل من أشكال الترضية التي كان يقـــوم بهـــا الملـــك غليوم الثاني تجاه الكنيسة، لكن على حساب الأقلية الإســـلامية فـــي صقلية.

وإمعانا في الدقة، فإن الوثيقة المذكورة تسرد اســـماء رجـــال الجرائد المسلمين الذين يتعين رجـــوعهم للـــديوان الملكـــي. ومـــن المحتمل أن يكونوا من ذوي الخبرات الفلاحية.

والملاحظ أن جلّ الوثائق التي فحصناها تمت بين طرف مسلم وآخر نصراني، مع غياب العقود البينية بين مسلمي صقلية، مما يطرح السؤال حول إشكالية انعدام عمليات البيع والشراء بين الأقلية الإسلامية وكيفية تفسيرها، وإن كان الفرضية الراجحة تتمثل في أن هذ البيع الرائج من قبل المسلمين لفائدة النصارى، يعكس وجود طرف قوي يستغل الفرصة لفرض توجهاته، وآخر ضعيف مستكين يقبل بأي شيء حتى ولو لم يكن يرضيه.

وقد فطن الأستاذ عبد الهادي التازي لهذا الأمر عندما علّق على مجمل هذه الوثائق بالقول أنها ((تعطي الدليل إن كنا نحتاج إلى ذلك على أن المسلمين – يقصد الأقلية المتبقية من مسلمي صقلية- كانوا يوجدون على حالة من الحرج والشدة واليأس بحيث لم يكن في مستطاعهم إلا أن يقبلوا ما يفرض عليهم أو يرحلوا عن البلاد، ولا ينبغي بحال أن يغرنا تعامل النورمانيين مع الحرف العربي في الوثيقة وفي التخاطب، فإنه لم يكن في مستطاعهم غير ذلك في انتظار أن يجهزوا وبصفة نهائية على كل بقايا الإسلام والعروبة بتلك الديار))[1].

والراشح من هذا التعليق أنه يتماشى مع تفسيرنا للمتناقضات الحاصلة بين ما تثبته وثائق البيع من " مرونة" و" تساهل" و" قانونية"

---

[1] عبد الهادي التازي، م.س، ج5، ص 211 - 212

في التعامل التجاري، والمضمرات التي تختفي وراء سطور الوثـائق والعقود من ضغوطات وإكراهات.

نخلص من حصيلة ما تقدم أن الأقلية الإسـلامية أو معظمهـا على الأقل تعرضت في الحقبة النورمانية لأبـشع صـور مـصادرة الأملاك، أو فرضت عليها صيغ للتنازل عن أراضيها أو بيعها تحـت أشكال متعددة من الإكراهات، وذلك بهدف تقزيم دورها في أي عملية اقتصادية. وأقحمت بعد تجريدها من ممتلكاتها ضمن فئة المزارعين الأقنان التابعين لسلطة الإقطاعيين، أو إدماجهم فـي سـلك الرقيـق المرتبط بخدمة الأرض في أملاك حكام صقلية، وبذلك يمكن القـول أن وضعيتهم الاقتصادية تدنت إلى أحط درجات المهانة والاسـتغلال البشع كرقيق لم يسمع صوتهم لدى المؤرخين مـسيحيين ومـسلمين، حتى يمكن أن نتتبع بعمق أوضاعهم الاقتصادية.

## المبحث الخامس:

# المسألة الدينية بين مسار التسامح ومشاهد الاضطهاد

عند تشخيص وتحليل الوضـــعية الدينيـــة للأقليـــة الإســـلامية بصقلية، يجد الباحث نفسه أمام مسارين متناقضين: أحـــدهما ينطـــق بمشاهد من التسامح الديني التي تدعو إلى الدهشة والاســـتغراب فـــي زمن شهد ذروة الصراع الإسلامي – المسيحي واشتداد شوكة الروح الصليبية، بينما ينطق الآخر بلغة مغايرة تنم عن الاضطهاد الذي طال الأقلية الإسلامية، مما يجعل الباحث يقف في حيرة من الأمر لتفـــسير هذا المشهد المتناقض في معطياته، المتباين في تجلياته وانعكاساته.

**1- المسار التسامحي:**

تكشف المصادر العربية عن هذا المسار التسامحي، لكن بنـــوع من الأحكام الفضفاضة التي تفتقر إلى المعلومات الدقيقة، والى القدرة على كشف المتناقـــضات. فـــإذا تجاوزنـــا موقـــف ولاء وإعجـــاب الجغرافي العربي الشريف الإدريسي بأوليـــاء نعمتـــه مـــن ملـــوك النورمان، وتعظيمه المفرط لهم، وسكوته عن فضح عوراتهم، اتضح أنهم نهجوا سياسة تسامح ديني تم تطبيقها على كل شرائح المجتمـــع الصقلي بما في ذلك الأقلية الإسلامية. ينهض قرينة علـــى ذلـــك أن رجار الأول لم يستسلم لرغبات الكنيسة في تنصيرهم، بـــل ((أقـــرهم

على أديانهم وشرائعهم، وأمّنهم في أنفسهم وأموالهم وأهليهم وذراريهم ثم أقام ذلك مدة حياته)) على حد تعبير الإدريسي [1]، وهو ما تؤكده شهادة مسيحية أوردها المؤرخ ملاترا Malattera Geoffroy ذكر فيها أنه عند دخول الكونت رجار الأول العاصمة باليرمو سنة 465 هـ/ 1072م، وعد المسلمين بأن لا يكره أحدا على تغيير دينه [2].

وقد عزا بعض الباحثين عدم خضوعه لضغوطات الكنيسة إلى أسباب تتعلق بكيان دولته الفتية التي كانت في أمس الحاجة إلى المسلمين الذين كانوا يشكلون القوة الضاربة في جيشه، ولذلك لم يغامر بإكراههم على اعتناق النصرانية، وهو تفسير تجزيئي يبتسر هذه الظاهرة المعقدة ويختزلها في الجانب العسكري فحسب [3]، ويهمل الحوافز الاقتصادية التي كانت وراء سياسة التسامح التي نهجها رجار الأول، وهو ما تفطّن له المؤرخ Curtis الذي حلل بعمق هذا الموقف، مستنتجا أن استراتيجيته كانت تقتضي أن يؤسس علاقة سلمية مع الدول الإسلامية في ساحل الشمال الإفريقي لضمان حصته في التجارة المتوسطية التي كانت صقلية أحد أقطابها

---

[1] الإدريسي، نزهة المشتاق : النص الوارد عند: أماري المكتبة العربية الصقلية، ص 31.

[2] مورينو مارتينيو ماريو، المسلمون في صقلية، ص19

[3] أمين توفيق الطيبي، دراسات وبحوث في تاريخ المغرب والأندلس م.س، ص46.

الأساسيين، وهو ما فرض عليه التعامل بأسلوب التسامح مع الأقلية الإسلامية في صقلية[1].

وحذا رجار الثاني نهج أبيه حذو النعل بالنعل، فسلك سياسة دينية متسامحة مع مسلمي صقلية[2]، ((ومنع من التعدي عليهم))[3]، بل إن كثرة تسامحه معهم أثارت انتباه المؤرخين فسجلوها بكثير من الإعجاب. كما كان شديد العناية بالصلحاء المسلمين حتى أنه لكثرة تعلقه بأحدهم، كان يجلّه ويكرمه ويقدمه على من عنده من حاشيته من القساوسة والرهبان[4]. وقد بلغ من إفراطه في التسامح مع المسلمين ما جعل البعض يصفه بأنه ((سلطان عربي يحمل تاجا كملوك الإفرنج))[5]. ولا يخامرنا الشك ايضا أن نفس السبب كان وراء اتهامه من قبل أعدائه بكونه اعتنق الإسلام[6].

وعلى هدي هذه السياسة المتسامحة، سار غليام الأول حتى أنه لقب في النصوص المسيحية "بالملك السيئ" (The bad) بسبب تسامحه

---

[1] Curtis (E), Roger of Sicily, p 95-96

[2] أماري، المكتبة العربية الصقلية، ص37.

[3] أبو الفدا، المختصر في أخبار البشر : النص الوارد في المكتبة العربية الصقلية، ص415 ـ النويري، نهاية الأرب، ج24، ص383.

[4] ابو شامة، كتاب الروضتين، ج1، ص140.

[5] مورينيو، المسلمون في صقلية، 22.

[6] ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج9، ص9.

مع المسلمين[1]. وكان معجبا بالحضارة والنظم العربية، حتى أنه اختار من ألقاب الخلافة لقب " الهادي بأمر الله"، وكان يؤثر توقيع اسمه ممهورا بعبارة " الحمد لله وشكرا لأنعمه"[2]، ناهيك عن تشجيعه الفكر الإسلامي ومناحي المعرفة العربية، وإعجابه بالجنس العربي في صقلية. ينهض قرينة على ذلك تعيينه لعدد منهم في مناصب قيادة الحرس داخل البلاط الملكي، وتكوين فرقة منهم كقوة ضاربة في الجيش النورماني[3]، اعتمادا على قوة شكيمتهم، خاصة في المجال البحري الذي كان يشكل بالنسبة له مجالا نافعا، يستغله في فرض الهيمنة النورمانية على شرايين البحر المتوسط. كما اعتمد على "الأنتليجنسيا" العربية التي كانت تضم نخبة من المثقفين وعلى رأسهم الشريف الإدريسي الذي سيفيده كما أفاد أباه من قبل في معرفة الطرق البرية والمسالك البحرية لتوسيع مشاريعه التجارية. لذلك لم يكن صدفة أن تظهر الأقلية الإسلامية بصقلية تعلقها وحبها لهذا الملك الذي كان يحقق لهم التوازن في مجتمع مهدد بالنعرة الطائفية وربما الإبادة الجماعية التي كان من المحتمل أن تحدث في عصر تطفو عليه التعصب الديني لولا قوة العرش النورماني الذي كان يمتلك آليات الضبط والمراقبة لتحقيق السلم الاجتماعي.

[1] امين توفيق الطيبي، م.س، ص50.
[2] ابن جبير، م.س، ص 298.
[3] حسن حلاق، م.س، ص 127.

أما في عهد الملك غليام الثاني فإن شهادات الرحالة ابن جبير تعتبر وثيقة تنطق بمشاهد التسامح التي شملت الأقلية الإسلامية بصقلية. وحسبنا أنه وفر لهم الحرية الدينية، فكان بإمكانهم أداء شعائر الصلاة في المساجد دون أن يعترضهم أحد[1]. ونسرد في هذا السياق نموذجا يثبت تسامح الملك غليام الثاني حتى مع الفتيان المسلمين الذين كانوا يشتغلون في بلاطه. فعندما ضربت هزة أرضية مدينة باليرمو وكان ذلك في عهده، صارت ألسنة أولئك الفتيان تلهج بالدعاء والتضرع إلى الله، والتوسل باسم النبي محمد (ص)، فلم يمنعهم غليام الثاني من أدعيتهم النابعة من الإيمان، ومن صميم العقيدة الإسلامية[2]. ولم يصدر من السلطة الحاكمة ولا من النصارى أي سلوك ينم عن عنصرية، بل إن الرحالة الأندلسي ابن جبير الذي زار صقلية في عهده وخبر أحوالها طولا وعرضا، سجل انطباعا جيدا حول بعض النصارى، وشهد لهم شهادة موضوعية بالمعاملة الطيبة[3]، وهو ما يترجم نجاح غليام الثاني في سنّ سياسة سلم اجتماعي وتعايش بين كافة طوائف المجتمع الصقلي[4]، وإن كانت

---

[1] رحلة ابن جبير، ص 271، 276

[2] المصدر نفسه، ص 268

[3] المصدر نفسه ص 271.

[4] إحسان عباس، م.س، ص 150.

بعض الوقائع قد كدّرت صفو هذا التعايش والتساكن كما سنحلل عند معالجة مسألة اضطهاد الأقلية الإسلامية بصقلية.

انعكست سياسة التسامح في عهد هذا الملك أيضا في الحرية التي منحها للأقلية الإسلامية في إقامة احتفالاتهم وطقوسهم حسب ما تقتضيه العادات والأعراف الإسلامية. ولا غرو فقد كانت الطقوس الاحتفالية الإسلامية في المناسبات الدينية تقام أمام سمع وبصر السلطات الحاكمة، وكافة الفئات المسيحية والشرائح الاجتماعية الأخرى. وفي هذا الصدد لاحظ ابن جبير أثناء زيارته لمدن صقلية، أن المسلمين كانوا يؤدون صلاة الأعياد وفق طقوس احتفالية لا تخلو من الإفراط والمبالغة. فعندما وصل هذا الأخير إلى اطرابنش Trapani صادف وصوله حلول عيد الفطر، فرأى المسلمين بعد انتهائهم من صلاة العيد يدقون الطبول ويهتفون بأهازيج الفرحة بهذه المناسبة الدينية في الأبواق ؛ ورغم أن هذا السلوك كان بالإمكان أن يستفز المسيحيين وغيرهم، إلا أنهم غضوا عنه الطرف[1]، مما يؤكد انتفاء أي مضايقات دينية، أو أي استفزاز يثير المسلمين.

والراجح أن الاحتفال بالأعياد الإسلامية، خاصة عيدي الفطر والأضحى في صقلية كانت متميزة إلى حد الشهرة في العالم الإسلامي، وتشكل مظهرا من الرموز التراثية الراسخة في نسيج

---

[1] المصدر نفسه، ص276.

المجتمع الصقلي كما تثبت ذلك شهادة الجغرافي العربي المقدسي[1]. لذلك بنى النورمان موقفهم على احترامها كذاكرة طقوسية دينية- اجتماعية، ووفروا كل الظروف الملائمة لتنظيمها بكامل الحرية. ورغم أن المقدسي عاش قبل الحقبة النورمانية، فإن نصه يتكامل مع رواية ابن جبير.

ومن الغريب أن هذا التسامح وقع في خضم التصدع الذي حدث في علاقة غليام الثاني بالمسلمين، بسبب ارتباط القائد أبي القاسم بن حمود بالموحدين، وسعيه إلى إبعاد إسطفان Stefano مستشار والدة الملك الوصية على عرش صقلية. وقد استمر هذا المناخ المتسامح مخيما إلى عهد الملك فريدريك الثاني الذي لم يفرض بدوره تنصير المسلمين بالرغم من تهجيرهم إلى لوشيرة[2].

ومن المظاهر الأخرى التي تعكس هذا التسامح الديني، بقاء المساجد منتشرة في صقلية بعد نهاية الحكم الإسلامي، ولو أنها لم تستمر بنفس الرقم الإحصائي الذي أورده ابن حوقل في عهد الحكم الإسلامي، والذي بلغ ما يربو عن 300 مسجد في مدينة باليرمو والجهات المحيطة بها[3].

---

[1] أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص 183.

[2] محمد حسن، الجغرافية التاريخية لإفريقية، ص180- أمين توفيق الطيبي، م. س، ص76.

[3] انظر ما ذكره ياقوت نقلا عن ابن حوقل في : معجم البلدان، ج3، ص418.

لكن مع ذلك فإن شهادات الرحالة الأندلسي المذكور الذي زار جزيرة صقلية في عهد غليام الثاني تقوم حجة على روح التعايش الديني الذي وسم بميسمه المجتمع الصقلي في العصر النورماني. وحسبنا أنه شاهد بأم عينه مساجد عديدة منتشرة في مدينة باليرمو وثرمة، وأسهب في وصف مسجد بقصر سعد المشيد في هذه القرية الصغيرة [1]، ناهيك عن مساجد أخرى في مدينة قطانيا[2]. ويبدو أن عدم هدم المساجد يندرج في استراتيجية النورمان في اكتساب الرأي العام للأقلية الإسلامية، تماشيا مع توجهاتهم في إقرار سياسة التوازن الاجتماعي.

وكان الجهر بالآذان من المسائل غير المحظورة في المجتمع الصقلي، ولا غرو فإن ابن جبير سمع الآذان جهارا بمسجد قصر سعد المذكور، وشاهد مسلمي باليرمو ((يقيمون الصلاة بآذان مسموع))[3]. كل هذه الأحداث التي وقف شاهدا ومعاينا لها تؤكد أن التسامح الديني كان سائدا بصقلية ضمن سياسة سلم اجتماعي نهجها الملوك النورمان. لكن هل يمكن الوقوف عند هذا الحكم والتسليم

---

[1] ابن جبير، م.س، ص271،270،267 - العمري، مسالك الأبصار : النص الوارد في المكتبة العربية الصقلية، ص156.

[2] الإدريسي، م.س، ص28.

[3] ابن جبير، م.س، ص273،271.

بحرية المعتقد لدى الأقلية الإسلامية بصقلية ؟ ألا نجد مشاهد أخرى تعاكس هذا المشهد الذي يمثل أرقى نموذج لحقوق الأقليات في أوروبا خلال العصر الوسيط؟

## 2- المسار الاضطهادي :

رغم هذه النماذج من التسامح التي أتينا على ذكرها، والمسجلة في النصوص العربية واللاتينية، فإن ثمة ما يناقضها، ويثبت أن الأقلية الإسلامية تعرضت لبعض الاضطهادات الدينية التي يمكن رسم ملامحها في مجموعة من المشاهد :

**- المشهد الأول: تحويل المساجد إلى كنائس:**

ثمة نماذج تعكس ما تعرضت له مساجد الأقلية الإسلامية بصقلية من هدم، وتحويلها إلى كنائس، وهو ما تقوم عليه العديد من القرائن. فبمجرد استيلاء رجار الأول على مدينة باليرمو، بادر إلى تحويل مسجدها الأعظم إلى كنيسة، فضلا عن مساجد أخرى، وهذا ما حذا بأحد الباحثين الغربيين إلى التعليق على هذا التعصب الديني بقوله: ((وهذا موجز للرحمة التي كانت أوروبا تقدمها للعرب، فهي مشروطة بالقضاء على حريتهم وفي عزلهم ليكونوا جماعة ذات كيان

منفصل))[1]. ورغم أن الإدريسي كان على علم تـام بهـذا الـسلوك المؤسف، فإنه لم يلمح إليه إلا عرضا، حفاظا على امتيازاته وحظوته لدى أولياء نعمته من الملوك النورمان. ورغم أن هذا الحدث جاء في بداية غزوهم صقلية وفق ما تفرضه الأحـداث آنـذاك مـن صـدام وتعصب قبل الالتقاء والتعايش على أرض واحدة، فلا يمكـن بكـل المقاييس والمبررات إلا أن نقر بأن مثل هذا السلوك كان يضر بأسس الاندماج، ويخدش مسار حرية المعتقد لدى الأقليات، ويعرقل مـسيرة التعايش والتساكن بين مكونات المجتمع الصقلي.

ومن المفارقات الغريبة أن رجار الثاني الذي عرف بتـسامحه الديني الكبير مع الأقلية الإسلامية، غيّر جلده في أواخر حكمه، فصار ينصّر المسلمين، ويحوّل المساجد إلى كنائس لتلميع صـورته أمـام العالم المسيحي[2]، وهو مشهد يصعب تفـسيره إلا إذا التجأنـا إلـى التفسير بالسياسة البراغماتية التي تعتمد على منطق الربح والخسارة، بعيدا عن أي بوصلة تقود نحو مربع المواقف الإنسانية. وانطلاقا من هذه القاعدة، نفهم هذا التناقض في سياسة النورمـان تجـاه الأقليـة الإسلامية بصقلية، وندرك حقيقة ازدواجية المواقف.

---

[1] Daniel, Norman, The Arabs and Medieval Europe, London- Beirut 1975, p 148

[2] حسين مؤنس، تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس، المعهد المصري للدراسات الإسلامية، مدريد 1967 ص 182- 183.

- **المشهد الثاني: حظر خطبة صلاة الجمعة**

منعت سلطات باليرمو منعا باتا مسلمي صقلية من إلقاء خطبة الجمعة داخل المساجد التي سمح لهم بالصلاة فيها. مصداق ذلك قول ابن جبير: ((ولا جمعة لهم بسبب الخطبة المحظورة عليهم))[1]، وهو أمر يفسر بما كانت تتضمنه خطبة الجمعة في الغالب من ذكر لأحوال المسلمين، وتتبع الخطيب لمجريات أحداث الساعة، مما يتيح له فرصة انتقاد أي سلوك محرج أو عمل مشين قام به النورمان، ومن ثم القيام بتحريض المسلمين على مقاومتهم، أو إثارة قضية يصعب السيطرة عليها[2].

ومن المعروف أن خطبة الجمعة هي فضلا عن جانبها التعبدي والوعظي، تعد تذكيرا أسبوعيا بأحوال المسلمين وأوضاعهم، واستعراضا لما قد يحل بهم من نكبات ومحن. كما أنها تشكل منبرا إعلاميا ينساب خطابه التحريضي إلى المتلقي الذي يحضر صلاة الجمعة، ناهيك عن كونها "تجمعا" إسلاميا ينشر الوعي ويناهض الظلم، مما قد يشكل خطرا على السلطات الحاكمة، لذلك لم تتورع في منعها والحيلولة دون إقامتها تجنبا لأي خطر محتمل، أو تحفيز على اي مقاومة أو انتفاض ضد السلطة الحاكمة.

---

[1] ابن جبير، م.س، ص 273

[2] علي الزهراني، م.س، الرابط الإلكتروني السابق الذكر.

مقابل ذلك سمح للأقلية الإسلامية بإلقاء خطبة صلاة العيد، لكن من المحتمل أن السلطة الحاكمة كانت تتدخل فتفرض على الخطيب الدعاء في الخطبة للخليفة العباسي الذي كان يتسم بالضعف وفق ما نصّ عليه ابن جبير[1]، لا للخليفة الموحدي الذي عقدت عليه الآمال في تحرير مسلمي صقلية.

- **المشهد الثالث: كتمان الإسلام:**

ارتبطت ظاهرة التكتم وعدم الجهر بالديانة الإسلامية بالبلاط الحاكم دون المناطق الصقلية الأخرى. وأوشكت هذه المسألة أن تغشيها سحب النسيان لولا أن ابن جبير أماط عنها اللثام. فقد أخبرنا أن الملك الصقلي غليام الثاني اتخذ جملة من المسلمين خداما وحاشية ووزراء، ولكنه ضيق عليهم في حرياتهم الدينية، حتى كان ((كلهم أو أكثرهم كاتم إيمانه، متمسك بشريعة الإسلام))[2]. وبسبب هذا الحظر الديني، كانوا يتحينون فرصة غفلة الحرس البلاط الملكي وأعوانهم لأداء الصلاة أفواجا كلما حان وقتها، مع أن هذه العملية كانت محفوفة بالمخاطر لولا الأقدار الإلهية التي كانت تحميهم حسب شهادة ابن جبير. ومع ذلك كانوا يتحرزون ويتخذون كافة الاحتياطات حتى لا تنكشف حقيقة إسلامهم. يقوم دليلا على ذلك وصف ابن جبير

---

[1] ابن جبير، م.س، ص 273.

[2] المصدر نفسه، ص269.

للظروف التي تم فيها لقاؤه بأحد فتيان القصر: فقد جرى اللقاء في سرية تامة، ودار بينهما حوار سري وصفه الرحالة الأندلسي وصفا بليغا حين قال متحدثا عن محاوره: ((وباح لنا بسرّه المكنون بعد مراقبة منه مجلسه أزال لها من كان حوله ممن يتّهمه من خدامه محافظة على نفسه، فسألنا عن مكة قدسها الله))، ثم أورد بعد ذلك بعض ما جاء في هذا الحوار بما يكشف عن كتمان فتيان القصر ممارسة الشعائر الإسلامية بقوله على لسان هذا الفتى: ((ونحن كاتمون إيماننا، خائفون على أنفسنا، متمسكون بعبادة الله))[1]، وهو وصف يغني عن أي شك في الاضطهاد الديني الذي تعرض له هؤلاء الفتيان المشتغلون في القصر.

نفس الشيء يقال عن جواري القصر اللائي كنّ لا يبحن بإسلامهن للملك غليام الثاني، ومع ذلك كنّ يتحدين ظروف خنق الحريات الدينية، فيقمن بما يمكن أن نسميه في لغتنا المعاصرة بالدعوة السرية داخل القصر نفسه. وقد أصبن النجاح في مهمتهن، وتمكنّ من إدخال بعض الجواري النصرانيات إلى دين الإسلام الحنيف[2]. وبالمثل، كان أحد قادة الجيش الصقلي من المسلمين قد اتهم بكتمان إسلامه هو وبعض أتباعه[3]، مما يدل على أن الشخصيات

---

[1] المصدر نفسه، ص268.
[2] المصدر نفسه والصفحة نفسها.
[3] ابن الأثير، م.س، ج 9، ص 42

الإسلامية النافذة في المجتمع الصقلي، كانت مضايقة في دينها ومعتقداتها.

ولعل قراءة في روايات ابن جبير تكشف التناقضات التي تخترقها، ففي الوقت الذي تبرز كيف أن الأقلية الإسلامية كانت تعيش اضطهادا دينيا، تظهر نصوصه أيضا بعض جواري القصر كبطل ينتصرن على التحديات، بل تصلن إلى إقناع بعض نصارى البلاط –عن طريق الدعوة – باعتناق الإسلام.

**– المشهد الرابع: إعدام المتعاطفين مع الأقلية الإسلامية بصقلية:**

يستشف هذا المشهد من رواية أوردها المؤرخون، وتتعلق بإعدام قائد عسكري، يدعى فيليب المهدوي، وهو قائد عسكري كان قد بعثه رجار الثاني على رأس حملة عسكرية ضد مدينة بونة التونسية، فحاصرها وتمكن منها، إلا أنه غضّ الطرف عن جماعة من العلماء والصلحاء المسلمين، ولم يتعرض لهم بسوء، مما أثار حفيظة الملك المذكور وحنق رجال الكنيسة، فاجتمع الأساقفة والقساوسة وأصدروا حكما بإعدامه، فتمّ إحراقه بالنار[1].

وثمة حالة ثانية تصب في نفس الاتجاه، مفادها أنه تم توجيه صك الاتهام إلى " روبرت كالابيانو" Robert Calabiano بحسن معاملة

---

[1] ابن خلدون، كتاب العبر، ج5، ص240 - 241 – ابن الأثير، م.س، ج 9، ص 42

المسلمين، فكان ذلك سببا في اضطهاده والزجّ به في السجن الذي بقي فيه إلى أن لفظ أنفاسه الأخيرة [1].

والغريب في الأمر أن رجار الثاني الذي وصفه الإدريسي بأرقى النعوت الخلقية والقيم الحضارية والعدل وحسن السيرة، تصدر منه هذه السلوكات المتعصبة، وهذا ما جعل تأويلات الباحثين تتساءل حول أسباب التحول الذي طرأ على سياسته تجاه الأقلية الإسلامية. فقد عزا البعض هذا التحول إلى أسباب شخصية تمثلت في وفاة ثلاثة من أبنائه خلال تسع سنوات، فضلا عن سوء حالته الصحية [2]، بينما أرجع البعض ذلك إلى أسباب سياسية تتجلى في قيام الإمبراطور البيزنطي منويل كومينوس بحشد قواته وتحضيرها ضده في منطقة البحر الأدرياتيكي متهما إياه بالتعاطف مع المسلمين[3]، في حين ذهب البعض إلى تفسير هذه الخطوة المتعصبة من جانب رجار الثاني بمحاولة تبرئته من تهمة الإساءة للمسيحية[4]، أو بسبب ظهور دولة الموحدين وتأثيرها على استنهاض همم المسلمين للانتفاض ضد السلطة الحاكمة[5]، وهو أمر ينطبق أكثر على عهد غليام الثاني الذي

---

[1] Daniel, op.cit.p150.

[2] حسان حلاق، العلاقات الحضارية بين الشرق والغرب في العصور الوسطى : الأندلس صقلية الشام، ص 127.

[3] عزيز أحمد، م، س، ص81.

[4] إحسان عباس، العرب في صقلية، ص148.

[5] علي الزهراني، م.س... الموقع الإلكتروني السابق - حسان حلاق، م.س، ص 127

قيل أنه نكث عهد السلم مع الأقلية الإسلامية بسبب الأخبار التي وردت عليه بشأن التحركات العسكرية الموحدية[1].

**- المشهد الخامس: تنصير المسلمين وتغيير الأسماء العربية**

سعى النورمان إلى تنصير بعض العلماء، وإرغام بعض القيادات الإسلامية على اعتناق المسيحية عن طريق الإكراهات المادية والمعنوية، كاستراتيجية ضرورية لتنصير الأقلية الإسلامية برمتها. ونسوق في هذا الصدد مثال الفقيه ابن زرعة العالم الصقلي المسلم الذي اعتنق المسيحية وحفظ الإنجيل وتاريخ الروم وتراثهم، وأصبح متمكنا من قوانين الشريعة النصرانية حتى صار في عداد القسيسين الذين يستفتون في الأحكام النصرانية. ويقال أنه حول مسجدا كان إزاء منزله إلى كنيسة. وسواء كان هذا الارتداد عن الإسلام نابعا من قناعة أو مجرد تقية و تستر أو هروب من التزامات مالية كما استنتج ذلك ابن جبير من مصادر ظنية[2]، فإن عملية التنصير كانت قائمة رغم عدم تبنيها من طرف المؤسسة الحاكمة التي كانت ترى -عكس المؤسسة البابوية- أن الزمن وحده كفيل بتنصير المسلمين[3].

---

[1] ابن جبير، م، س، ص277.
[2] المصدر نفسه، ص279.
[3] حسان حلاق، م. س، ص 122

واللافت للانتباه أيضا أن خطر التنصير اخترق العائلات المسلمة أيضا. فكان يكفي أن يشجر نزاع بين الأب والأبناء أو بين الأم وابنتها أو الزوج وزوجته، حتى يلتحق الأهل والأبناء بالكنيسة ويتعمدون ويعلنون تنصّرهم[1]. ويحتمل أن يتم هذا التنصير بمباركة من رجال الدين النصارى في صقلية.

ولعلّ عملية خطورة تنصير الأسر المسلمة بصقلية ما جعل ابن جبير يؤكد بنوع من الحسرة والأسف أن أهل النظر من المسلمين يتخوفون من استدراج مسلمي صقلية، ويتنبأ بتحويلهم جميعا إلى الديانة المسيحية كما حصل لمسلمي جزيرة أقريطش[2]، وهو تنبؤ لم يكن خارجا عن الصواب، إذ اثبتت الأحداث فيما بعد توجه الكنيسة المسيحية إلى تنصير بقايا المسلمين بصقلية.

من ناحية أخرى، يبدو أن بعض أفراد الأقلية الإسلامية قد أجبروا على استبدال أسمائهم العربية بأسماء ترمز للديانة المسيحية، ويسرد ابن جبير أسماء بعض الشخصيات الإسلامية التي التقى بها وقد غيرت أسماءها خوفا من آلة الاضطهاد الديني، فظهرت أسماء جديدة من قبيل عبد المسيح، وعبد الله النصراني وغيرها.

---

[1] المرجع نفسه، ص280.
[2] المصدر نفسه، والصفحة نفسها

إن ما يمكن أن يستشفه الباحث من خلال كل هــذه المعطيــات المتناقضة أن الحرية الدينية للأقلية الإسلامية كانت وليــدة مــصالح سياسية، فكلما ظهرت حاجة السلطة النورمانية إلى الخبرة العربية في تسيير دواليب الدولة وإلى خدماتهم التقنية والهندسية التي ســنعالجها في المباحث القادمة، كلما اتجهت العقارب نحو التسامح حتى ولو كان ذلك على حساب الدين ورغبات الكنيسة. وبقدر ما تظهر المــصالح السياسية معاكسة لفكرة التعايش والتسامح، تجنح الأمورُ نحو اتجــاه التصادم، وهذا ما يفسر تناقض الروايات بما في ذلك التناقض الذاتي الذي وقع في شراكه الرحالة ابن جبير.

**المشهد السادس: الإبادة والتطهير العرقي:**

بعد وفاة غليام الثاني سنة 585 هـ/ 1189 م، دخلت صــقلية في مناخ سياسي مترع بالفوضى والانقسام، في الوقت الذي أصبحت السلطة الحاكمة تعاني من الضعف والوهن في عهد تانكريد Tankred الذي تولى السلطة سنة 586 هـ/ 1190م. وتطلع النبلاء الإقطــاعيون إلى السلطة، لكنهم اختلفوا ما بين مؤيد ومناهض للألمان، ممــا زاد من وقود الخلافات السياسية. وفي مثل هذا المنــاخ المفتقــر للأمــن والسلم الاجتماعي الذي يأتي متزامنا عادة مع نهاية الدول والسلالات الحاكمة، صارت الأقلية الإسلامية تعاني من الاضطهاد والقمع والقتل والتنكيل. وتكمن أهم تجليات هذا المناخ المتوتر في المذبحــة التــي تعرض لها المسلمون في باليرمو سنة 585 هـ/ 1189م، والتي كانت

تطهيرا عرقيا واضح المعالم، حتى أن الفئة القليلة المتبقية من المسلمين الذين قدر لهم النجاة، التجأوا إلى الجبال والمغارات فرارا من آلة القتل النورمانية، ومما كان ينتظرهم من تطهير عرقي. وقد كان المؤرخ " هوكو فلقندو Hugo Falcandus قد تنبأ بهذه المجزرة قبل وقوعها، وطالب قبل ذلك الشعب الصقلي بالوحدة الوطنية وبالإصلاح السياسي، إلا أن نداءه ظل صيحة بدون غد[1]. ومن الأكيد أن هذا القمع والتطهير العرقي خلف أثرا سلبيا في نسيج التعايش، وكان بداية النهاية للأقلية الإسلامية في صقلية، وهو ما سنعالجه بتفصيل في المبحث القادم.

---

[1] مورينيو، م.س، ص 24 – 25. وانظر أيضا:
Curtis, Op.Cit, p 417.

المبحث السادس:

# الأقلية الإسلامية
# بين فضاءات الاندماج
# ومحاولات اغتيال الهوية

لا تتبنى هذه الدراسة المفهوم السائد في علم الاجتماع، والـذي مفاده أن الاندماج هو مجموعة التدابير التي يتبناها المجتمع لقبـول عضو جديد داخل كيانه، بل تفرض علينا المقاربة التاريخية أن نعكس هذا المفهوم ليصبح مجموعة التدابير التي سارت على نهجها الأقليـة الإسلامية في صقلية للمساهمة في تطوير المنتوج الحضاري للمجتمع الصقلي، ومن ثم فرض نفسها كعنصر أساسي تحتاج إليهـا الـسلطة الحاكمة، ولا تستغني عن خدماتها التي تفاعلت من خلالها مع السلطة النورمانية وباقي الشرائح الاجتماعية، فعبّـرت مـن خلالهـا علـى الاندماج والشراكة الحضارية. ورغم هذه الإسهامات التنموية، فـإن الأقلية الإسلامية بصقلية لم تنصف ولم تحظ بكامـل حقوقهـا، بـل تعرضت أحيانا للإقصاء والتهميش، وللاضـطهاد وخنـق الحريـات العامة والخاصة.

**1 - إسهامات الأقلية الإسلامية في تنمية المجتمع الصقلي:**

لا مشاحة في أن ثقل الرصيد الحضاري للمسلمين في صـقلية، وتخلف النورمان الذين كانوا لا يزالون يعيـشون علـى ((فطـرتهم

الوحشية الأوروبية))[1]، ما جعلهم يعتمدون كليا على خدمات الأقليـة الإسلامية. كما أن مناخ التسامح الذي خـيم فـي بعـض الفتـرات التاريخية شجع بدوره الأقلية الإسلامية علـى الانـدماج فـي كيـان المجتمع الصقلي، عبر مشاركتها في جملة من الادوار التي تنوعـت بين الخدمات الإدارية، والفنية والعـسكرية، والإنتـاج الاقتـصادي، والمساهمة في المنتوج المعرفي، مما جعلها شريحة اجتماعية لم يكن بمقدور السلطة الحاكمة الاستغناء عليها.

- في الإنتاج المعرفي والتقني:

استندت الأقلية الإسلامية في هذه الخـدمات علـى رصـيدها المعرفي السابق من جهة، وعلى تشجيع ملوك النورمان الذين كـانوا ملوكا مثقفين وشغوفين بالمعرفة والعلم من جهة أخرى؛ فرجار الثاني كان حسب الإدريسي ضليعا في علوم الرياضيات، ورجل اختراعات من الطراز الرفيع، فضلا عن اهتمامه الواسع بعلم الجغرافيـا حيـث ظل منغمسا في البحث عن حقائقه طيلة خمسة عشر سـنة[2]، ناهيـك عن شغفه أيضا بالعلوم الفلسفية والهندسية. ولم يكن حكـام بـاليرمو الآخرون يقلّون عنه في شغفهم بالعلم. في ظل هذه البيئـة الملائمـة تفتقت ثقافة الأقلية الإسلامية لتشاركهم مشاركة قوية ربمـا فاقـت

---

[1] احمد توفيق المدني، المسلمون في صقلية وجنوب إيطاليا، طبعة الجزائر 1365 هـ / 1945 م ص 163، مع إقرارنا بضرورة تنسيب هذا التخلف.

[2] الإدريسي، مقدمة كتاب نزهة المشتاق، ص 5- 6 .

مشاركات الشعوب الأخرى، مستفيدة من مناخ الحرية الفكرية وتعدد اللغات. بيد أن هذه الثقافة تميزت بغلبة العلوم الطبيعية، مع تراجع كبير للمعارف الدينية الإسلامية، وبروز شعر مدح الملوك النورمان، مقابل اختفاء شعر الجهاد[1] .

لقد عرف منسوب الإنتاج المعرفي للأقلية الإسلامية ارتفاعا كبيرا في الحقبة مدار الدراسة؛ حيث تنبث في كتب التراجم والطبقات أسماء العلماء المسلمين الذين عاشوا في البلاط النورماني. ففي الجانب الأدبي على سبيل المثال، صنف الكتاب والأدباء مؤلفات في تراجم الشعراء، واخترقوا أسوار القصر لينظموا قصائد في مدح الملوك كما يشي بذلك شعر ابن قلاقس الاسكندري الذي مدح رجار الثاني، فأجزل له العطاء، ثم اتصل بأحد زعماء صقلية وهو أبو القاسم بن حمدون فألف له كتاب "الزهر الباسم في أوصاف أبي القاسم "، وهو كتاب ذكر فيه جملة من الشعراء الصقليين[2].

ولا شك أن الإبداع الشعري، وخاصة في غرض المدح، عرف بعض الإشعاع، إذ احتضن بلاط الملوك الصقليين عددا من الشعراء العرب الذين مدحوا رجار الثاني وغيره. وللأسف فإن جملة من هذا الإنتاج الشعري ضاع تحت وطأة الطمس، أو باعتباره شعرا في مدح

---

[1] إحسان عباس، العرب في صقلية، ص 160-265-267-269-270-278.

[2] ابن خلكان، وفيات الأعيان،ج 6، ص 218.

"الكفار". ولم يبق منه إلا النزر اليسير مما نقله الأصفهاني في ((خريدة القصر وجريدة العصر))، حيث لا يتجاوز 12 شاعرا نذكر من بينهم الشاعر المعروف بالبثيري الصقلي، والشاعر ابن بشرون[1].

ومع أن أسماء شعراء البلاط الصقلي لا تمثل سوى رقم شحيح، إلا أنها تكشف عن مساهمة الأقلية الإسلامية في تفعيل المشهد الشعري، خاصة في عهد رجار الثاني الذي نقش القصائد الشعرية في قصره المسمى بقصر العزيزة Laziza، وهو في مجمله شعر بعيد عن هموم ومشاكل المسلمين آنذاك، ويقتصر على وصف مباني ومتنزهات الملوك، كما خصص أحيانا لرثاء أبنائهم وأقربائهم[2].

وفي نفس المنحى المعرفي الذي أبدعه فكر الأقلية الإسلامية بصقلية، أورد ميخائيل أماري[3] في موسوعته الصقلية نقلا عن أبي الفدا في كتاب ((المختصر في أخبار البشر)) مؤلفا لمحمد بن ظفر، تحت عنوان ((سلوان المطاع))، كتبه لبعض قيادات الأقلية الإسلامية في صقلية سنة 554هـ/ 1159م، ناهيك عن كتاب ((نجباء الأبناء)) و((شرح مقامات الحريري)).

---

[1] الأصفهاني، م.س، قسم شعراء المغرب والأندلس، ج1، 23، 24.
[2] انظر تفاصيل هذا الموضوع عند إحسان عباس، م. س، ص265 وما بعدها
[3] المكتبة العربية الصقلية، ص418.

وبالمثل صنف ابن واصل كتابا في المنطـق يحمـل عنـوان ((الأنبرورية)) برغبة الأنبرور صاحب صقلية عندما بعث سفيرا إليه في عهد الظاهر بيبرس الصالحي[1].

بيد أن أهم الإنتاجات المعرفية التي أبـدعتها عبقريـة الأقليـة الإسلامية في هذه الحقبة ، تتمثل – دون مـدافع– فـي الإنتاجـات الجغرافية والنباتية للعالم المغربي الشريف الإدريسي. فقد وفـد هـذا العالم المغربي إلى صقلية برغبة من رجار الثاني[2]. ولم تكن رغبـة الملك الصقلي في استدعاء الإدريسي محض رغبة علمية، بل كانـت تتستر أيضا وراء ستار سياسي يتجسد في كون هذا الأخير من سلالة دولة الأدارسة الذين سلب البربر ملكهم في إمارتي مالقة والجزيـرة الخضراء الأندلسيتين، ومن ثم كان حاقدا عليـه[3]، وبـذلك فمطـامح الرجلين معا تتقاطع في معاداة حكام هاتين الإمـارتين. ويـرجح أن يكون الشخص الذي جمع بين الطرفين رجل من أعيان الملك القلي أو من المقربين إليه.

ومهما كان الأمر، فقد ألف الإدريسي استجابة لطلـب الملـك الصقلي كتابه المشهور ((نزهة المـشتاق فـي اختـراق الآفـاق))، المعروف أيضا ب"كتاب رجار" أو "الكتاب الرجاري". كما صنع بناء

---

1 المصدر نفسه، ص420.

2 الصدفي، الوافي بالوفيات : النص الوارد في المكتبة الصقلية، ص658.

3 محمد حاج صادق، مقدمة تحقيق نزهة المشتاق، قسم المغرب العربي، ص26-27.

على طلبه أيضا كرة من الفضة Olani-Sphere نقشت عليها صورة الأقاليم السبعة التي تفوق خريطة بطليموس الشهيرة في دقتها وقلة أخطائها، وذلك في شوال من سنة 568هـ/ 1172 م[1].

وتكمن أهمية كتاب الإدريسي في ما تضمنه من خرائط بلغت السبعين، وغطت العالم برمته. وقد رسمها على أساس أن الأرض كروية الشكل، في وقت ساد الاعتقاد أنها مسطحة. وكان وصفه فيها لأوروبا أدق وأجمل، مما يؤكد مساهمة الأقلية الإسلامية بصقلية في تطوير الفكر الكارتوغرافي آنذاك. ولا غرو فقد اعتبر الكتاب أوفى كتاب جغرافي خلفه العرب، وأن ما يحتويه من تحديد للمسافات، و ما يتضمنه من وصف دقيق ن جعل منه أعظم وثيقة علمية جغرافية في القرون الوسطى[2]، بل لا نبالغ إذا قلنا أنه أحدث ثورة في عالم الجغرافيا وفي مجال الخرائطية.

ولإبراز قيمة هذا الكتاب نستشهد بمقولة المستشرق "سيديو" الذي علق على هذا الإنجاز العلمي بقوله: ((على مدى ثلاثمائة

---

[1] الإدريسي، م.س،ج1، ص6-7.

[2] أحمد فؤاد باشا، التراث العلمي للحضارة الإسلامية ومكانته في تاريخ العلم والحضارة، دار المعارف، القاهرة 1984، ص120.

وخمسين عاما، ظل رسامو الخرائط الأوروبيين لا يفعلون شيئا سوى إعادة نسخ هذا الكتاب مع بعض التغيرات الطفيفة))[1].

فضلا عن هذا الكتاب الذي يعد معلمة بارزة في مسار الفكر الجغرافي، ألف الإدريسي كتابا آخر للملك غليام الأول سماه "روض الأنس ونزهة النفس"، أو كتاب المسالك والممالك الذي لا يعرف منه إلا مختصر مخطوط في مكتبة حكيم أوغلو باشا بإسطنبول، فضلا عن كتاب سماه ((جامع الصفات لإثبات النبات))، درس فيه كثيرا من النباتات وخاصياتها العلاجية، ثم كتاب ((الأدوية المفردة))[2]، ناهيك عن كتاب آخر تحت عنوان ((أنس المهج وروض الفرج)) قام بتحقيقه أحد الباحثين مؤخرا[3].

**- في مجال التصنيع والهندسة :**

لم يبق سوى النادر من النصوص التي تميط اللثام عن مجال الصناعات التقنية والهندسية التي أبدت فيها الأقلية الإسلامية بصقلية باعا طويلا بالنسبة للحقبة النورمانية، فالمتون النصية تتحدث عن آلة

---

[1] سيديو لويس، تاريخ العرب العام، ترجمة عادل زعيتر، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة 1969، ص374.

[2] تقي الدين عارف الدوري، (( دور صقلية في نقل التراث الطبي إلى أوروبا )) ، مجلة المؤرخ العربي، العدد 29، سنة 1986، ص 205.

[3] أنس المهج وروض الفرج، قسم شمال إفريقيا وبلاد السودان، تحقيق الوافي نوحي، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمغرب، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط 2007.

أبدعها أحد المبدعين المسلمين لرجار الثاني بهدف رصد الساعات، وهي الآلة التي طواها الزمن، ولم تصمد منها سوى خطوط كتبت باللغات الثلاث اللاتينية واليونانية والعربية، وهي اللغات الشائعة في صقلية. وقد جاءت الصيغة العربية المكتوبة في هذه الآلة كما يلي:

((خرج أمر الحضرة الملكية العظيمة الرجارية بعمل هذه الآلة لرصد الساعات بمدينة صقلية المحمية سنة 536هـ))[1].

ونحن في غنى عن ذكر الدائرة الفضية الجغرافية التي صنعها العلامة الجغرافي الشريف الإدريسي، وهو ما سبقت الإشارة إليه.

أما في مجال الهندسة، فقد برز من بين فطاحل المهندسين المسلمين الذين أسهموا في المجال العمراني والفني خلال هذه الحقبة مهندس يدعى أبو الليث، وإن كنا لا نملك للأسف كثيرا من المعلومات حول حياته وإسهاماته المتنوعة في مجال التخطيط والهندسة العمرانية. ولا يستبعد أن تكون كنيسة الأنطاكي التي أعجب ابن جبير بطريقة بنائها وزخرفتها قد بنيت من قبل رجل من أصل عربي مسلم ظلّ أيضا في خانة المجهول[2]. ومن المحتمل أن يكون بعض الفنانين المعماريين الوافدين من العراق قد ساهموا في زخرفة

---

[1] نفسه، ص 162، وقد اقتبس إحسان عباس هذا النص من:
Gregorio, Rosario, Rerum arabicum quae ad historiam siculam spectant ampla colectio, p 176.

[2] عبد المنعم ماجد، العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، ص129.

بعض الكنائس وغيرها من المعالم العمرانية الصقلية. وحسبنا دليلا على ذلك أن زخارف القصور والحمامات وشكل الطراز المعماري المستعمل فيها لا يختلف عن نظيره العراقي الذي شاع في العصر العباسي[1]، وهو الطراز الذي نجد نظيرا له في معمار باليرمو. أما تطريز الملابس وزخرفتها بما في ذلك العباءة الفاخرة التي كان يلبسها رجار الثاني والمدبجة بحروف عربية كوفية، فلا يرقى الشك إلى أن صناعتها تمت بأيادي عربية بإشراف ديوان الطراز.

ومما يعكس الحضور الفني العربي في صقلية من خلال الأقلية الإسلامية المقيمة فيها أن بعض قصور مدينة باليرمو ظلت تحمل بصمات الفنون الهندسية الرائجة في دولة بني حماد. فقصر العزيزة Laziza والقبة Lacuba في باليرمو تشبه في زخرفتها قصور اللؤلؤة والكوكب وغيرها من القصور المشيدة في الدولة الحمادية، حيث ترتفع تجاويف الحائط من أرض القصر إلى أسقفه، وتقسم واجهة البناء،وتحيط بها حاشية مزخرفة على شكل الطراز الفني العربي المتطور[2].

---

[1] حسان حلاق، العلاقات الحضارية بين الشرق والغرب في العصور الوسطى : الأندلس صقلية الشام، ص 123. وفي ما يخص الطراز الإسلامي في العصر النورماني بصقلية، انظر : أحمد توفيق المدني، م.س، ص 112 وما بعدها.

[2] رمضان المبروك الصيد، م.س، ج2، ص 389.

ولم تتزحزح كنيسة القصر الملكـــي فـــي بـــاليرمو عـــن ذات القاعدة، وحسبنا دليلا على ذلك ما يمكن للعين ملاحظته مـــن تماثـــل كبير بين هذه الكنيسة والمسجد الجامع في قرطبة من ناحية الأشـــكال الزخرفية وبنيان الأعمدة. وزاد من هذا التماثل ما نقش على ســـقف هذه الكنيسة التي شيدها عاهل صقلية رجار الثاني من نقوش كوفيـــة، جعلت الكنيسة أقرب إلى مسجد إسلامي منه إلى كنيسة مسيحية[1].

وبذلك تتضح الصورة المـــشرقة التـــي كـــان عليهـــا الـــبلاط النورماني بفضل مساهمة النخبة المثقفة من المهندســـين المعمـــاريين المنتمين للأقلية الإسلامية، وممن آثروا البقاء في صقلية، وتمخـــض عن ذلك تفاعل بين الثقافتين الإسلامية واليونانية، مما جعـــل صـــقلية جزيرة تشع بالعلوم، وتشكل معبـــرا لانتقـــال الحـــضارة العربيـــة-الإسلامية نحو أوروبا، ومقدمة للتحولات التي شهدتها أوروبا تمهيـــدا لولوج عصر النهضة.

- **في مجال الخدمات الإدارية والعسكرية:**

نظرا لحداثة عهد النورمان بالحضارة، وافتقارهم لتجربة كبيرة في تسيير دواليب الحكم، فقد اعتمدوا على الأقلية الإسلامية في تسيير شؤون الإدارة والدواوين [2].

---

[1] حسن حلاق، م.س، ص 124، 132- فيليب حتي، م.س، ص 694- رمضان المبروك الصيد، م.س، ج2، ص 390.

[2] أمين توفيق الطيبي، دراسات وبحوث في تاريخ المغرب والأندلس، ص45.

وقد سبق أن بينا عند معالجة الوضعية الاجتماعية بعض الخدمات الإدارية التي قام بها الفتيان داخل القصر من وزارة وحجابة، فضلا عن الخدمات الأخرى التي أسلفنا عرضها، وهي خدمات تحتل من الناحية السياسية والأمنية أبعادا خطيرة. ونضيف إلى ذلك المشاركة الإسلامية في بعض المجالس الاستشارية مثل المجلس المعروف ب Familiares regis (حاشية الملك).

ويستشف من خلال بعض النصوص أن مساهمات المسلمين في الجوانب الإدارية تمثلت أيضا في تسيير دواليب بعض السلطات البلدية من خلال هيئة تعرف ((بالأفاضل)) Vomini Louni، كانت مهمتها تكمن في مساعدة صاحب القضاء؛ ومن المحتمل أن تكون صورة مشابهة ((للجماعة)) التي سادت خلال الحقبة الإسلامية في صقلية[1].

أما بخصوص الخدمات العسكرية، فمن المصادفات الغريبة أنه في الوقت الذي كانت الحروب الصليبية تعرف ذروتها إبان الحقبة مدار الدراسة، كان بعض المسلمين من صقلية يشكلون قوة ضاربة في الجيش الصقلي. وهو أمر يفسّر برغبة الملوك النورمان في الإفادة من مهارتهم في فنون الحرب كبناء المجانيق، وتشييد أبراج الحصار المتحركة لمقارعة أعدائهم في جنوب إيطاليا والقوى

---

[1] إحسان عباس، م. س، ص144.

البيزنطية، ومواجهة الإمبراطورية المقدسة. كما استعملهم غليام الأول في تثبيت الجبهة الداخلية ومواجهة خصومه السياسيين[1]. لذلك لا غرابة أن يدخل بعض مسلمي صقلية من العاملين في الأسطول الصقلي عالم الشهرة مثل أحمد الصقلي الذي كفله ملوك صقلية، فقدم لهم خدمات عسكرية.

ومن خلال تتبع النصوص والمرويات العربية، يتضح أن الأقلية الإسلامية ساهمت بشكل كبير في الأسطول العسكري الصقلي، فالمصادر تتحدث عن أن أساطيل رجار الثاني كانت ((مشحونة بالمسلمين والإفرنج))[2]. ولا تكاد تخلو من إشارات كثيرة تؤكد مشاركة المسلمين في قيادته. ومن المفارقات الغريبة أن الفئة المسلمة المكونة للأسطول النورماني كانت تدخل أحيانا في صدام مع مسلمين منَ بني جلدتهم كما حدث أثناء هجوم رجار الثاني على جربة، إذ أكد ابن أبي دينار أن الأسطول المهاجم كان يضم ((رجال مسلمين من أهل صقلية ورجال الإفرنجيين))[3]، وهو نفس ما وقع لطرابلس، فعندما غزاها العاهل الصقلي المذكور سنة 540هـ/1145م، وتمكن من الاستيلاء عليها، ((أبقى فيها جنده من المسلمين والصقليين

---

[1] احمد توفيق المدني، م.س، ص 166.

[2] ابن أبي دينار، المؤنس في أخبار إفريقية وتونس : النص الوارد في المكتبة الصقلية، ص534.

[3] نفس المصدر والصفحة.

وغيرهم))[1]، وكل هذه المؤشرات تقوم دلائل قاطعة علـــى مـــشاركة الأقلية الإسلامية في الجيش النورماني وتطوير أسطوله، ممـــا يؤكـــد اندماجها في نسيج المجتمع، وتفاعلها مع تحولاته وتطوره العسكري.

ولم يقتصر رجار الثاني على الاستفادة من خبرة المسلمين فـــي الأساطيل الحربية البحرية فحسب، بل اتخذ مـــن المـــسلمين المـــشاة والرماة وفرسان الخيول، رجالا أساسيين في حروبه[2]، مما يؤكـــد ان بنية الدولة النورمانية اعتمدت على الخبرة العربية بشكل اساسي.

ويستفاد من جماع المعطيات النـــصية الـــسالفة أن الخـــدمات المتنوعة التي قدمتها الأقلية الإسلامية للمجتمع الصقلي تعكس صورة واضحة على اندماجها في هذا المجتمع، وأنها جسدت شريكا حضاريا بامتياز، ومن ثم نستنتج أنه من الصعب قـــراءة تـــاريخ المنجـــزات الحضارية في صقلية بمعزل عن مساهمة الأقلية الإسلامية فيها. ومع ذلك، ثمة قرائن معاكسة تكشف عما تعرضت له هذه الأخيـــرة مـــن اضطهادات كان لها أبلغ الأثر في إحباطاتها النفسية.

---

[1] التجاني، رحلة التجاني، ص 209.
[2] عزيز أحمد، تاريخ صقلية الإسلامية، ص81.

## 2 – الاضطهادات السياسية ووقعها النفسي على الأقلية الإسلامية بصقلية:

تشكل الاضطهادات التي طالت الأقلية الإسلامية في صقلية مساحة قليلة الإضاءة في المصادر التاريخية التي اكتفت بإيراد نصوص يهيمن عليها الابتسار وقلة ضبط المعلومات، مما يجعل الباحث مضطرا إلى بناء بعض الفرضيات والتأويلات النسبية المحاذية للحقائق التي ينشدها المؤرخ. وعلى العموم يمكن حصر أسباب تلك الاضطهادات بصقلية سواء في الأرياف أو الحواضر الصقلية في أربعة:

– التعصب الديني من قبل الأجناس المكونة للمجتمع الصقلي، وخاصة اللمبارديين وبعض رجال الكنيسة.

– الغيرة والحسد بسبب المناصب القيادية التي حصل عليه بعض المسلمين، ناهيك عن الامتيازات والمناصب التي حصل عليها بعض الفتيان المسلمين داخل القصر النورماني.

– شره وأطماع الإقطاعيين والنبلاء الذين كانوا يسعون بشتى الوسائل إلى توسيع ممتلكاتهم وتحصيل المزيد من الثروات وزبد الأراضي على حساب المسلمين.

– يضاف إلى ذلك عامل سياسي أصاب هذه المرة السلطة الحاكمة نفسها، ويتمثل في ظهور الموحدين كقوة منقذة للمسلمين في

صقلية، ومن ثم عملت على الحيلولة دون تحالف الجانبين لإرجاع السيادة الإسلامية إلى صقلية[1].

ويمكن أن نفترض أن مشاهد الاضطهاد الذي تعرضت له الأقلية الإسلامية، كان وقعها أشدّ في الأرياف والبوادي التي كان وجود السلطة الحاكمة فيها شاحبا بسبب تعاظم سلطة النبلاء والإقطاعيين، مقارنة مع الحواضر الصقلية التي كانت تفرض قوتها وهيبتها على ساكنتها، وتسعى إلى تثبيت السلم الاجتماعي وحماية المسلمين. غير أنه كلما تعرض ملوك صقلية لثورات أو تمردات تهز أركان عروشهم وتزعزع نفوذهم، وجد الرعاع المسيحي المتعصب فيها فرصة للانقضاض على الأقلية الإسلامية واضطهادها، وهذا ما حصل عندما انتفض أهالي باليرمو على "مايون" Mayon وزير غليام الأول سنة 556هـ / 1160م، فحسب الرواية التي يسردها المؤرخ "فلقندو" Falcondus، كان هذا الوزير قد أصدر قرارا بنزع سلاح الأقلية الإسلامية في باليرمو عندما سمع بخبر تحرير الموحدين للمهدية. وعندما ثار عليه النبلاء والبارونات، اهتبل اللمبارديون فرصة تجريدهم من السلاح، فقاموا بمذبحة مروعة في الحي الشرقي من باليرمو [2]، بل امتدت أياديهم إلى فتيان القصر، فأثخنوا فيهم ذبحا

---

[1] امين الطيبي، م. س، ص51.

[2] محمد حاج صادق، مقدمة كتاب نزهة المشتاق، قسم المغرب العربي، ص44 – حسان حلاق، م. س، ص 128.

وتقتيلا. وكاد الإدريسي نفسه أن يفقد حياته في هذه المذبحة التي لم تنج منها حتى النخبة العالمة والشعراء المسلمون[1].

أما في البوادي فقد قصد اثنان من اللمبارديين قرية بثيرة Budera جنوب شرقي صقلية، وحرضا الفلاحين اللاتينيين واستعملوهم كقوة شنوا بها غارات على المسلمين المستقرين هناك، وأمعنوا في قتلهم وتشريدهم حتى اضطر من نجا منهم إلى الالتجاء للغابات والجبال، وبعض القلاع التي كان يقيم فيها المسلمون للتخفي عن أنظار المتعصبين[2].

وفي عهد غليام الثاني بدأ التوازن بين المسلمين والنصارى يعرف بعض الخلل، وأخذت حماية السلطة النورمانية تخفت، خاصة أن هذا الملك بدا متحيزا للنصارى، نشيطا في محاربة المسلمين في المغرب والمشرق تحت غطاء ديني، بينما كان الهدف الحقيقي هو حماية تجارة صقلية الخارجية وتأمين المواصلات البحرية بين أوروبا والأراضي المقدسة أثناء الحروب الصليبية. ومع أنه لم يشارك في الحملة الصليبية الثالثة شخصيا، فإن أسطوله لعب دورا

---

[1] يذكر الأصفهاني مقتل الشاعر يحي بن التيفاشي القفصي ويؤرخ لهذه المجزرة بسنة 550 هـ :
أماري، المكتبة الصقلية ص599.

[2] إحسان عباس، م.س، ص149 ."انظر أيضا:
Daniel_Medieval Sicily , p 148-149 عزيز احمد، م.س ، ص82 – حسان حلاق، م.س، ص 128

مهما في العمليات الحربية، ولذلك لقب -بسبب عدائه للمسلمين- بالطيب The Good[1].

وبعد وفاته وتولي أرملته الوصاية على العرش، توصلت عام563 هـ/ 1167م بمجموعة من الشكاوي من قبل النصارى، وخاصة اللومبارديين في باليرمو ضد مسلمين يشغلون مناصب حساسة كانوا قد تنصروا، ولكن خصومهم اتهموهم بكتمان إسلامهم[2].

والواقع أن وضعية الأقلية الإسلامية ازدادت سوءا في فترة الفوضى التي أعقبت وفاة غليام الثاني، أي بعد خمس سنوات فقط من زيارة ابن جبير لصقلية. ولا غرو فإن حمايتها ارتبطت بوجود سلطة مركزية قوية، أما وقد ضعفت هذه السلطة، فقد أصبح المسلمون في وضعية لا يحسد عليها، خاصة أن طبقة النبلاء الإقطاعيين تحالفت مع الكنيسة الكاثوليكية لتنصيرهم[3].

وقد فطن المؤرخ Falcondus في هذه الفترة العصيبة إلى خطورة الوضع في صقلية بسبب التعصب الديني وضعف السلطة المركزية بقوله: ((ولكن بعد أن سادت الفوضى وعاد الناس لا

---

[1] Daniel, Op.Cit, p152.
[2] Ibid p152.
[3] أمين توفيق الطيبي، م.س، ص60

يخافون سلطة الملك، فقد أصبح وللأسف من المتعسر أن يكف النصارى عن التعدي على العرب))[1].

وإذا كانت مذبحة سنة 556هـ / 1160م وقعت تحت قيادة "تانكريد"، Tankred وهو آنذاك مجرد قائد عسكري، فإنه بمجرد توليه الحكم، نظم مذبحة جديدة لمسلمي باليرمو الذين ثاروا ضد الحاكم الجديد سنة 585هـ /1185م. وكان "تانكريد" شديد التعصب ضد المسلمين حتى أن الوثائق لم تعد تكتب في عهده بالعربية كما كانت من قبل[2]. وكان المسلمون قد تشاءموا منه منذ ذكرى مذبحة 1160م، فعزموا على الانتفاض عليه، وانضم إليهم عبيد الأرض الكادحون في الإقطاعيات المنتشرة في صقلية، وقدر عدد هؤلاء المسلمين المنتفضين بمائة ألف بما فيهم النساء. وقد شكلت هذه الانتفاضة وما أعقبها من قمع بداية النهاية للوجود الإسلامي بصقلية وانتهاء فترة التعايش بين الطرفين[3]. وأسفرت عن عدد كبير من الضحايا وفرار من سلم منهم إلى جبال صقلية الواقعة في الطرف الشمالي الغربي للجزيرة حيث قاموا هناك بتنظيم مقاومتهم التي استمرت من نهاية 1189م إلى أكتوبر من سنة 1190م الموافق لشهر رمضان من عام

---

[1] مورينو مارتينيو ماريو، المسلمون في صقلية، ص24-25.
[2] عزيز احمد، م. س، ص85.
[3] امين توفيق الطيبي، م.س، ص59.

586هـ، ثم أقنعوا بالعودة إلى بيوتهم في باليرمو، وعاد الأرقاء إلى حقولهم للحصول على لقمة العيش[1].

من البديهي أن تخلف هذه الوضعية الحرجة للأقلية الإسلامية بصقلية أثرا نفسيا بليغا فيها، خاصة إذا أضيفت إلى الاضطهادات الدينية والاقتصادية والاجتماعية التي سلف تحليلها. ومع الأسف فإن دراسة الجانب النفسي للأقلية المسلمة بصقلية لم تنل حظها الكافي في الأبحاث المعاصرة بسبب سكوت المصادر التاريخية عنها، باستثناء تلميحات باهتة وإشارات عابرة لا تفيد في الإلمام بهذه الحلقة المفقودة من تاريخ مشاعر الإنسان. ومع ذلك يمكن اعتمادا على الشذرات القيمة والإيماءات الغنية التي وردت في رحلة ابن جبير وكذا بعض المتون الشعرية تسطير مجموعة من المعطيات حول الوضعية النفسية للأقلية الإسلامية بصقلية من خلال لوحات متعددة من المشاعر يمكن تسطيرها على النحو التالي:

- **مشاعر القلق وانعدام الشعور بالأمن:**

لا شك أن الحالة النفسية للأقلية الإسلامية تأثرت إلى حد كبير بعلاقتها وارتباطها بالسلطة النورمانية قربا أو بعدا، فكلما تقربت هذه الأخيرة من المسلمين وقامت بحمايتهم، شعروا بنوع من الاطمئنان

---

[1] إحسان عباس، م.س، ص154- عزيز أحمد، م.س، ص85.

النفسي، وكلما وقع شرخ في تلــك العلاقــات، انتــابتهم المخــاوف وازدادت هواجسهم.

ومن خلال تتبع الوضع النفسي للأقلية الإسلامية، يمكن القــول أنها كانت تشعر بنوع من الأمان والطمأنينة النسبية في عهد رجــار الأول ورجار الثاني وغليام الأول الــذين وفــروا الأمــن والحمايــة للمسلمين، وبسط رجار الثاني حمايته ورعايته على كــل المتعــاونين معه. ونسوق في هذا الصدد نموذج الجغرافي الــشريف الإدريــسي الذي حماه حتى من المسلمين الذين ناصبوه العداء، وهو ما يفهم مــن مخاطبته بالقول: ((أنت من بيت الخلافة، ومتى كنت عنــدي أمنتــك على نفسك، ومتى كنت عند المسلمين عمل ملوكهم على قتلك)). ولم يكتف بتأمينه في النفس، بل أمنه في معيشته بأن جعــل لــه مرتبــا "أميريا"، ووهب له ما تبقى من كميات الفضة التي كان قد أمــره أن يصنع بها الكرة الفلكية[1].

والراجح أن الأقلية الإسلامية تمتعت بهذا القسط مــن الأمــن أيضا في عهد الملك غليام الأول حتى أن خصومه لقبوه بالــسيئ The bad لعلاقته الوطيدة بالمسلمين، وحرصــه الــشديد علــى حمــايتهم وصيانة حقوق مواطنتهم .

---

[1] الصدفي، م.س، ص 658.

غير أن الخلل بدأ يطرق هذه الحالة الآمنة إبان عهد غليام الثاني نسبيا، لتنهار تماما بعد وفاته، إذ لم تعد السلطة النورمانية بعده قادرة على توفير الحماية للمسلمين. ويكشف نص المؤرخ "فلقندو" عن بداية مرحلة جديدة من التخوف الذي بدأ ينتاب الأقلية الإسلامية في صقلية بعد وفاة الملك المذكور، فبعد أن تم إخباره بوفاة هذا الأخير، كتب رسالة إلى أحد أصدقائه يقول فيها.

((إني لأرى بعيني بني وطني فريسة للذبح والأسر، وأرى العدوان واقعا على العذارى والنساء، وفي مثل هذه الضائقة أيها الصديق ماذا ترى يفعل الصقليون؟ إنهم إن اجتمعوا على ملك شجاع مجرب احتفظوا بصقلية وقلوريه، إن باليرمو لا تزال مكللة بالعزّ، وأسوارها تضم المسيحيين والمسلمين النشطاء، فلو أن الشعبين اتحدا في ظل ملك واحد من أجل سلامتهما لاندفعا يصدّان البرابرة بأسلحة لا تنثنى))[1].

وواضح من هذا النص أن المؤرخ " فلقندو" دق ناقوس خطر الحرب الأهلية بسبب انعدام سلطة مركزية قوية، وافتقار إلى الوحدة التي انفرط سلكها. وفي ذات الوقت لم تخرج تقديراته الاستشرافية وقراءته لمستقبل صقلية عن خط الأمل في استرجاع الوحدة الوطنية

---

[1] أوردها إحسان عباس، ص153- 154 اقتباسا من :
H.S. Wiliams, History of the World , vol 9 , p1.

إذا ما وحّد الصقليون مواقفهم، لإيمانه بالقوة البشرية لبلده بما تحويه من مسيحيين ومسلمين. بيد أن نداءه لم يكن إلا صدى في واد، فالمجتمع الصقلي كان قد وصل إلى ذروة الفوضى والانقسام، وبالتالي أصبح سكان الجزيرة، وخاصة الأقلية الإسلامية في حالة نفسية مروعة، يواجهون خطر الموت أو التهجير القسري، وهما خياران مفروضان، وأحلاهما مرّ.

- حالة الاغتراب والعزلة:

يقدم ابن جبير نصوصا في غاية الأهمية حول حالة الاغتراب التي انتابت الأقلية الإسلامية في صقلية. وتأتى أهمية هذه النصوص من كونه شاهد عيان عايش فترة من الزمن مسلمي صقلية، وترجم آلامهم وتعبيراتهم عن الغربة والعزلة التي كانوا يشعرون بها بسبب انعدام الأمن في المال والأهل والولد. يقول في هذا الصدد: ((وبالجملة فهم غرباء عن إخوانهم المسلمين تحت ذمة الكفار، ولا أمن لهم في أموالهم ولا في حريمهم ولا أبنائهم))[1].

وحتى الشريف الإدريسي الذي عاش ملكا غير متوج في البلاط النورماني، لم يخف ما كان يخالجه من أفكار إنسان يشعر بالضيق والحرج، وتغص نفسه بهاجس الخوف والضعف، ويطمح إلى الهواء الطلق رغم ظروف الحياة المترفة والعيش الرغيد، وهو ما يبدو من

---

[1] ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص273.

خلال أبيات شعرية نظمها للتعبير عن هذا الشعور الداخلي، احتفظ بها الصدفي في ترجمته، حيث أورد له الأبيات التالية:

ليت شعري أين قبري ضاع في الغربة عمري

لم أجد جارا ولا دارا كما في طي صدري

فكأني لم أسر إلا بميت أو بقفر[1]

- **الخوف من طمس الهوية وتدنيس الشرف:**

يترجم ابن جبير أحاسيس الأقلية الإسلامية بجزيرة صقلية وتخوفهم من طمس هويتهم الدينية عن طريق التنصير، وذلك خلال عرضه خبر الشباب المسلمين الذين كانوا -في حالة الخلاف مع آبائهم- يهددونهم آباءهم بالذهاب إلى الكنيسة واعتناق المسيحية، فينقل لنا خشية هؤلاء الآباء وأهل الحكمة والعقلاء أن يتنصر كل مسلمي صقلية كما وقع في جزيرة أقريطش، مما جعلهم يدارون أبناءهم، ويسعون لإرضائهم كوسيلة من وسائل الحد من إمكانية اعتناقهم النصرانية، وفقدان هويتهم الدينية. وقد عبّر الرحالة الأندلسي بوضوح عن هذا التخوف من طمس الهوية الإسلامية بقوله: ((فهم الدهر كله في مداراة الأهل والولد خوف هذه الحال))[2]، ويقصد بعبارة ((هذه الحال)) عملية التنصير.

---

[1] محمد حاج صادق، م..س، ص 41

[2] ابن جبير، م.س، ص280.

ومن الراجح أن هاجس الخوف كان ينتاب أيضا فتيان القصر المسلمين الذين كانوا لا يتحركون إلا بأوامر الملك غليام الثاني، ولا يستطيعون إظهار عزة أنفسهم وعزة دينهم، بل كانوا في حالة خشية دائمة من طمس هويتهم، وهذا ما يجسده قول أحدهم ويدعى عبد المسيح: ((ونحن كاتمون إيماننا، خائفون على أنفسنا))[1]. والحكم نفسه ينسحب على النخبة العالمة التي كانت تضطر إلى كبت عواطفها تجاه الإسلام والمسلمين؛ ويمثل الإدريسي أنموذجا للمسلمين الذين خانتهم الحمية الإسلامية، حتى أنه كان يفتخر باستيلاء رجار الثاني على صقلية، ولا يستنكر ما كان يجري من حروب صليبية ضد المسلمين، ويتحاشى ذكر تحويل المسجد إلى كنيسة، كما يلوذ بالصمت عن ذكر أخبار المقاومة الإسلامية ضد النورمان بسبب التخوفات التي كان يبطنها، والولاء الذي كان يظهره[2].

وبالمثل كان الخوف على عرض النساء المسلمات وشرفهم في طليعة التخوفات التي انتابت مسلمي صقلية أيضا، لذلك لا غرابة أن نرى أحد الآباء يتجرأ على إهداء ابنته الصغيرة لأحد الحجاج ليصحبها معه في رحلة عودته، ويتزوجها أو يزوجها لمن يرتضيه، رغبة في أن يجنبها ما قد يصيبها من أخطار هتك العرض كما وقع

---

[1] المصدر نفسه، ص268.
[2] المصدر نفسه والصفحة نفسها.

لكثير من مسلمات جزيرة صقلية. ويبدو من خلال الرواية التي أوردها ابن جبير[1] أن البنت المذكورة كانت تعيش على وقع هذا الهاجس من الخوف، حتى أنها كانت تصرّ على فكرة تزويجها من اي مسلم، بل حمّلت الأب مسؤولية ما قد يقع لها من مكروه إذا لم يزوجها لأحد الحجاج المارين بصقلية من أجل انعتاقها من الوضعية النفسية التي كانت تعيش تحت كابوسها. فإذا صحت المعلومة التي قدمها ابن جبير حول هذه الفتاة، يمكن الخروج بفكرة مفادها أن جرائم اغتصاب النساء كانت من بين أخطر الجرائم التي تعرضت لها الأقلية الإسلامية في صقلية، ولو أن المصادر لم تذكرها، ولكن المنطق التاريخي وظرفية الحروب والاضطهاد، وتعرض المسلمات للسبي يدعم ما نذهب إليه.

- الاضطراب النفسي والإحباط:

إذا كانت واقعة رغبة الفتاة في تزويج نفسها من أحد الحجاج تعبر في حدّ ذاتها عن القلق والحرص على التخلص من وضع مأساوي، فإن نقل ابن جبير للحوار الذي دار بينه وبين أحد زعماء الأقلية الإسلامية -أبو القاسم بن حمود- عند وصوله إلى مدينة أطرابنش Tripani يؤكد هذا القلق النفسي المتزايد الذي خيّم على أفئدة

[1] المصدر نفسه، م. س، ص281.

وعقول الأقلية الإسلامية بصقلية، فقد اغتنم هذا القائد فرصة لقائه مع ابن جبير ليفجر كل ما كان مكبوتا في نفسه، ويعبّر عمّا كان يضطرم في صدور أفراد الأقلية الإسلامية بصقلية ((بما يبكي العيون دما ويذيب القلوب ألما)). ويفهم من خلال الإشارات الواردة في نص الرحلة أن هذا القائد كان يتمنى أن يباع مع كل أفراد عائلته، عسى أن يخلصه البيع من الوضعية التي كان يعيشها في مثل تلك البيئة الصعبة، ويتيح له فرصة الالتحاق بديار الإسلام، واستنشاق عبير الحرية. ولعلّ هذه الشكوى الحارة التي تترجم حالة الأقلية الإسلامية بصقلية، وما رافقها من دموع الحسرة والألم الشديد، كانت وراء تعليق الرحالة الأندلسي على شكوى هذا الزعيم العربي الصقلي بقوله: ((وفارقناه باكيا ومبكيا))[1]، تعبيرا عن اقتناع المخاطب والمخاطب بالمأساة السيكولوجية التي كانت تعيشها الأقلية الإسلامية بصقلية، وفي نفس الوقت الإقرار بالعجز عن إيجاد مخرج من هذه الوضعية الصعبة.

لقد كان مسلمو صقلية يخففون آلامهم بالقناعة والرضا بالواقع أحيانا، لكن كلما وجدوا الفرصة، كانوا يتخافتون في ما بينهم، ويعبّرون عن تذمرهم، ويهمسون فيما بينهم بالشكوى على بعضهم البعض. وفي هذا الصدد كتب أحدهم يعبّر عن هذا القلق النفسي:

---

[1] المصدر نفسه، ص280.

((لكني إذا رجعت إلى شاهد العقل، وعدلت إلى طريق العدل يمازح قلبي سرورا، ويخالط شوقي بهجة وحبورا، بما ألهمك الله تعالى إليه من صفاء النية والإخلاص والظفر بأمل النجاة والخلاص، فأتلو عند ذلك "يا ليتني كنت معهم فأفوز فوزا عظيما"، ثم أرجع إلى قول النبي صلى الله عليه وسلم "الإيمان بالقدر يذهب الهم والحزن"))[1]، وهو نص يعكس الالتجاء إلى الرضا بالواقع والإيمان بالقدر، تخفيفا من هول الصدمة بتهريبها إلى مرجعيات دينية ملطّفة.

وبالمثل كانت الأقلية الإسلامية تنتظر فرصة لقائها بالحجاج المارين بصقلية للتبرك بهم، واستهداء أدعيتهم، والاغتباط بما كانوا يحملون لهم معهم من تحف مكة المكرمة والمدينة المنورة ليتخذوها عدة ورمزا معنويا لتقوية إيمانهم[2]، وفي ذلك دليل أيضا على الإحالة على المقدس، واتخاذ الإيمان سلاحا لمواجهة كل عوامل اليأس والإحباط النفسي.

ولعلّ هذا القلق النفسي من الوضع القائم والخوف من طمس الهوية ما جعل ابن جبير يقول معلقا على ما سمعه ورآه في أوساط

---

[1] أورد إحسان عباس هذا النص اعتمادا على الاصفهاني في خريدة القصر وجريدة العصر، النسخة المخطوطة، ورقة 19، الترجمة رقم 11 من مجموعة الشعر. انظر: إحسان عباس، م.س، ص 276 .

[2] ابن جبير، م.س، ص268.

الأقلية الإسلامية بصقلية: ((وعسى الله عن قريب أن يصلح هذه الجزيرة فيعيدها دار إيمان وينقلها من الخوف إلى الأمان))[1].

- **الرغبة في هجر صقلية وحنين العودة :**

بعد الغزو النورماني لصقلية، تشكلت في ذهنية الأقلية الإسلامية مشاعر مركبة تمزج بين الرغبة في هجرة الوطن الصقلي للتخلص من الأوضاع المتردية، وفي ذات الآن محبته والحنين للعودة إليه، وهي ازدواجية متناقضة، لكنها تعبر عن ترسبات نفسية وتراكم تاريخي عميق. ففي الوقت الذي تدين فيه الوضع القائم وتسعى بكل الطرق والوسائل إلى التخلص منه عن طريق الهجرة والخروج من صقلية إلى الأبد، يتملكها شعور الارتباط بالوطن الذي عاشت في دروبه ومسالكه واستنشقت هواءه، وخلفت فيه خزانا تاريخيا ينطق بالإنجازات الحضارية وتكريس الهوية الإسلامية. فالرواية التي أسلفنا ذكرها حول رغبة الأب وابنته في مفارقة صقلية، والتمنيات التي أظهرها أبو القاسم بن حمود في قبول البيع في سوق النخاسة على البقاء في صقلية، وما وقع من هجرات متتالية للمسلمين من صقلية، تنهض حجة على الرغبة الجامحة للأقلية الإسلامية في ترك الديار الصقلية والالتحاق بدار الإسلام لتجاوز ما اعتبروه سلوكات غير

---

[1] المصدر نفسه، ص273.

إنسانية، أقرب إلى غرائز الافتراس الحيواني، في المرحلة الأخيرة من عمر الدولة النورمانية التي تميّزت بالقتل والتشريد والاسترقاق والإبادة.

بيد أنه في الوقت نفسه، نجد بعض الفراد من الأقلية الإسلامية الذين غادروا صقلية يعبرون عن حنينهم وشوقهم إليها، والحلم بالعودة لها وهي ترفل في عزّ السيادة الإسلامية، ونقدم في هذا الصدد ثلاث نماذج تعكس الرغبة الجامحة والحلم بالرجوع إلى المنابت الأولى "للوطن المفقود":

- نموذج الشاعر ابن حمديس الذي عبّر عن شوقه وحنينه لصقلية في هذه الأبيات[1]:

ذكرت صقلية والأسى يهيج للنفس تذكارها

ومنزلة للتصابي خلت وكان بنو الظرف عمارها

فإن كنت أخرجت من جنة فإني أحدث أخبارها

وقال أيضا:

أحن إلى أرضي التي في ترابها مفاصل أهلي يلين وأعظم[2]

---

[1] اماري، م.س، ص550 -551 - ابن خلكان، م.س، ج3، ص214.

[2] المصدر نفسه، م.س، ص 567

- نموذج الشاعر عبد الحليم بن عبد الواحد أحد سكان مدينـة باليرمو الذي قال معبرا أيضا عن مشاعر الحنين إلى أرض شـبهها بجنة الخلود:

عشقت صقلية يافعـــــا وكانت كبعض جنان الخلود

فما قدر الوصل حتى اكتهلت وصارت جهنم ذات الوقود

وارتبط حلم العودة عند ابن حمديس بالاستمرار في التواصـل مع أقربائه الذين ظلوا مقيمين بصقلية. كما ارتبط بالـدعوة لمقاومـة الاحتلال النورماني لوطنه عن طريق إرسال القصائد المحرضة على قتال العدو والمقاومة والصمود من أجل استئصال شـأفته[1]، دون أن ينسى دوره في بلاد الاستقبال، للاستنهاض الهمم، ومخاطبة النخـوة العربية لدى الأمراء المسلمين لبداية مشروع تحريـر صـقلية مـن الغزاة.

- نموذج الشاعر أبو حفص عمر بن رحيق الذي نظم شـعرا عندما غادر باليرمو سنوات قلائل بعد غزوها من طـرف النورمـان سنة 504هـ/1110م، ولم يخف حنينه لأرض الأجداد والتذكير بلوعة الفراق مع الأهل الأقارب:

نفسي تحنّ إلى أهلي وأوطاني وهل رأيت محبا غير حنان

---

[1] المصدر نفسه، ص 416،412.

والجدير بالذكر أن هؤلاء الشعراء وغيرهم من النخبة الصقلية المهاجرة لم يكن حنينهم لصقلية حسرة على حياة رغدة ضائعة، فالحالة التي عاشوها في بلاطات الأمراء في كل من إفريقية والمغرب الأوسط والأندلس لم تقل رخاء ونعمة، ولكن حب الديار التي ترعرعوا فيها كانت أقوى من جاذبية الأموال والمتعة والشهرة.

**3 – موقف الفقهاء من محنة الأقلية الإسلامية بصقلية:**

في هذه البيئة التي تضافرت فيها عوامل الخوف من المصير المجهول والمحاولات لطمس الهوية، ازدادت مشاعر الآلام لدى الأقلية الإسلامية بصقلية بسبب عدم وجود فقهاء وعلماء متحررين من سطوة السلطة النورمانية حتى يلجأوا إليهم لحل مشاكلهم وعرض ما يعتريهم من مخاوف على هويتهم الدينية المهددة. ومع ذلك نجد صدى الفتاوى الفقهية بخصوص وضعية الأقلية الإسلامية رغم قلتها يتردد بين الفينة والأخرى، ويمكن رصد ذلك من خلال موقفين:

موقف يدعو لبقاء المسلمين في صقلية والتعايش مع الظروف المستجدة، ويمثله الفقيه المازري. فرغم أنه ترك صقلية، فقد أثار قضية إخوانه المسلمين الذين تمسكوا بوجودهم فيها، حيث أجاب عن الأسئلة التي طرحت عليه حول أحكام قاضي المسلمين الذي يعينه الحاكم النورماني، هل تقبل أحكامه أم لا، وهل تعد إقامة المسلمين في "دار الكفر" اختيارية أو اضطرارية.

وقد كانت أجوبة المازري تتسم بالواقعية ومراعاة الظروف المستجدة وهو ما يفهم من قوله: ((فتولية الكافر لهذا القاضي إما لضرورة إلى ذلك أو لطلب من الرعية لا يقدح في حكمه، وتنفذ أحكامه كما لو كان ولاه سلطان مسلم))[1].

ويبدو أن المازري قد نهج في هذه الفتوى ما يعرف بفقه الموازنات أي الموازنة بين المصالح والمفاضلة فيما بينها لمعرفة من التي ينبغي أن تسقط وتلغى، والموازنة بين المفاسد وأيها يحب تأخيره وإسقاطه حتى تدرأ المفسدة. ويفهم من هذه الفتوى أيضا أن الإمام المازري كان -على عكس الفتوى التي أوردها الونشريسي والتي سنعرض لها ضمن الموقف الثاني- يدعو إلى عدم هجرة المسلمين من صقلية، لأن الهجرة منها تسفر عن فراغ ديموغرافي إسلامي، وبالتالي التفريط في بلاد حكمها المسلمون، وبذلوا فيها الغلي والرخيص، والنفس والمال من أجل حفظ الإسلام في ربوعها. ومع ذلك فإنه كان يحذر العائدين من صقلية ويبحث لهم عن وسائل المساعدة والعمل، ويحرص على مدّهم بأراضي صالحة للزراعة في المواطن التي هاجروا إليها[2].

---

[1] ورد نص النازلة والجواب عنها عند الباحث عبد المجيد تركي، قضايا ثقافية من تاريخ الغرب الإسلامي، ص73.
[2] نفسه، ص69.

أما الموقف الفقهي الثاني فهو الذي كان يدعو الأقلية الإسلامية إلى هجر صقلية بسبب الوضعية المزرية التي كان تعيش تحت وطأتها، وعملية الإذلال والخوف اللذان كانت تعيش تحت كابوسهما، فضلا عن إكراهها على التنصر. لذلك صدرت فتاوى تطالبها بضرورة ترك "دار الكفر" إشارة إلى صقلية، والهجرة نحو "دار الإسلام" نتيجة ظهور ما سماه الفقهاء الممثلون لهذا الاتجاه بموالاة النصرانية التي بدأت في المائة الخامسة وما بعدها ((وقت استيلاء ملاعين النصارى دمرهم الله على جزيرة صقلية وبعض كور الأندلس))[1]. وهكذا لعبت الفتاوى الفقهية دورا في تحريض المسلمين ((المقيمين بين النصارى الحربيين)) على ضرورة الالتحاق بأرض الإسلام. بل أفتى بعض الفقهاء بمنع السفر إلى صقلية باعتبارها "دار كفر"، وبرروا ذلك بأن تطبيق الأحكام السائدة فيها على من دخلها من المسلمين أحكام كفر، لذلك فإن السفر إليها لا يجوز شرعا حتى وإن كانت الحاجة الاقتصادية ضرورية مثل الحصول على السلع والبضائع[2]. وقد برّر بعض الفقهاء هذا المنع من وجهين: أولهما ديني يتمثل في الاقتداء بنص القرآن الكريم الذي منع المشركين من دخول مكة رغم ما كان يسبب ذلك من خسائر تجارية للمسلمين. وثانيهما

---

[1] الونشريسي، المعيار المعرب، ج2، ص 125.

[2] المصدر نفسه، ج6، ص 317.

يكمن في أن نصارى صقلية كانوا يزيدون على التجار المسلمين الواردين على الجزيرة في صرف العملة، فتذرع الفقهاء بأن هؤلاء يستفيدون من هذا الربح في حربهم ضد المسلمين، ناهيك عن اعتباره نوعا من الربا لا يجب تجنبه وعدم المشاركة فيه[1].

ورغم هذه المحاذير الدينية، فقد استمر تدفق التجار على صقلية خاصة لشراء القمح والأطعمة[2]، وكانت عمليات كراء المراكب من صقلية إلى موانئ إفريقيا الشمالية أو الأندلس من القضايا التي أثارتها كتب النوازل، مما يدل على تغلب المصالح التجارية في صياغة علاقة دار الإسلام بدار الحرب التي تمثلها صقلية[3].

قصارى القول أن هذا المبحث مكننا من الوقوف على مشهدين متناقضين في علاقة الأقلية الإسلامية بالسلطة الحاكمة، فقد كشفت النصوص عن فضاءات متعددة تعكس اندماجها في نسيج المجتمع الصقلي وانخراطها في تنميته عن طريق الخدمات المتنوعة التي كانت تسهم بها، خاصة في مجال الإنتاج المعرفي، ومجال الخبرة التقنية والإدارية والفنية والعسكرية، وخدمات البلاط وتقلد وظائفه الحساسة. لكن على الرغم من الانخراط الإيجابي في توجيه بوصلة

---

[1] المصدر نفسه، ج6، ص 306-317-318.
[2] المصدر نفسه، ج6، ص 319-321-ج8، ص 207.
[3] المصدر نفسه، ج8، ص 299-306.

المجتمع الصقلي نحو التطور والتنمية، فقد تعرضت الأقلية الإسلامية لشتى أشكال الاضطهاد والحرمان من الحريات، مما انعكس على نفسيتها وجعلها تشعر بالغربة والقلق النفساني، والخوف من تدنيس شرف الأسرة وطمس الهوية الدينية والعربية ، ومن ثم التفكير في الهجرة وترك صقلية رغم حبها وتشبثها العميق بها كأرض تمثل المنابت الأولى لهويتها.

# على سبيل الختم

حاولت هذه الدراسة أن تحيط بأوضاع الأقلية الإسلامية في جزيرة صقلية إبان الحكم النورماني، فجعلت في منطقة الضوء بعض القضايا المغمورة كمحاولة الاندماج والتعايش في مجتمع يختلف عن المجتمع الذي كانت فيه قوة حاكمة وصاحبة سيادة. فبعد التمهيد بدراسة نظرية لمفهوم الأقلية فقهيا وسوسيولوجيا، أبرزنا وضعية الأقلية الإسلامية اجتماعيا واقتصاديا في ظل الإقطاعية النورمانية وما حملته من تحولات في هيكلة وبناء المجتمع الصقلي، مع توضيح خريطة انتشار هذه الأقلية في المدن والأرياف ومصادرة أملاكها، وتحول مجموعة منها إلى رقيق، فضلا عما تعرضت له من تنصير ومحاولات لطمس الهوية رغم مظاهر التسامح والحماية التي كان البلاط الصقلي يسعى إلى تثبيتها. كما عرج البحث على الخدمات الإنتاجية والفنية والتقنية والعسكرية التي ساهمت بها الأقلية الإسلامية في تنمية المجتمع الصقلي، وما طالها مع ذلك من محن واضطهادات أمطنا اللثام عن آثارها النفسية المتمثلة على الخصوص في انعدام الأمن الروحي، والشعور بالاغتراب والعزلة، والإحباط والقلق، ومن ثم الحرص على ترك الديار الصقلية، والهجرة نحو الدول الإسلامية المجاورة أو القريبة.

وإذا كانت مساحة البحث الزمنية لم تشمل دراسة مقاومة الأقلية الإسلامية للاضطهادات التي تعرضت لها، فإن ذلك يعزى إلى عدم انتماء هذه المقاومة زمنيا إلى المرحلة مدار البحث حيث أنها بدأت عمليا بعد انتهاء الحكم النورماني، أي خلال فترة الفوضى التي بدأت منذ 594 هـ/1197م، وهي المقاومة التي تزعمها محمد بن عباد العبسي الذي تشير إليه المصادر المسيحية باسم Morabit أو Mirabetto. وقد قاد هذا الزعيم المسلم مقاومة شرسة مع أنصاره الذين بلغ عددهم ما يناهز ثلاثين ألف ثائر سنة 616هـ/1220م، انتهى الأمر بالقضاء عليهم، غير أن ابنته أبت الاستسلام، وفضلت الانتحار على أن تقع أسيرة لقوات فريديريك الذي تمكن من استنزال الثوار المسلمين والقضاء عليهم قضاء مبرما، ثم اتخذ الخطوة الحاسمة والمصيرية لتصفية الوجود الإسلامي بصقلية عن طريق ترحيل البقايا منهم إلى Lucera بمقاطعة Apulie شمال شرقي نابولي سنة 622 هـ/1225م، بينما قام بترحيل قسم آخر منهم إلى نصيرة Nocera وجيريفالكو Girifalco خارج صقلية. ورغم قلة عدد الأقلية المسلمة المتبقية في صقلية، فقد قامت بثورة أخرى سنة 1244م/ 642 هـ، لكن كان مآلها الفشل أيضا. وأعقبت عملية تصفية الأقلية الإسلامية في صقلية خطوة أخرى قام بها شارل أنجو سنة 1266م انتهت بتنصير ما تبقى منها، واضعا بذلك نقطة النهاية لمسار تاريخي طويل للمسلمين بصقلية، الأمر الذي سيتمخض عنه آثار اقتصادية وخيمة على مستقبل الجزيرة، وهذا موضوع يستحق المزيد

من التوسع في دراسات مستقبلية للإجابــة عــن ســؤال دور الخبــرة العربية-الإسلامية في تطوير دواليب الاقتصاد والنهضة التي عرفهــا المجتمع الصقلي خلال العصر الوسيط.

# مصادر ومراجع الدراسة


*** الوثائق والنصوص:**

- أرشيف المكتبة المركزية لمنطقة صقلية **La Biblioteca centrale della regione Sicilan, No III**، ويحتوي على:

*عقود بيع وشراء متنوعة للأراضي والممتلكات.

*وثائق حول عبيد الأقلية الإسلامية المرتبطين بالأراضي الزراعية.

*لوائح حول أسماء رجال الجرائد.

-Cusa, Salvedor , **I diplomi grecied arabi di Sicilia** , Palerme 1868-1881 – réed Cologne_ Vienne 1982, texte Arabe p111-119.

- أماري، ميخائيل، **المكتبة العربية الصقلية**، Presso F.A. Brokh libraio della societa، ليبسك 1857، أعيد طبعها بالأوفست بمكتبة المثنى ببغداد.

*** المصادر العربية:**

- القرآن الكريم

- ابن الأبار (ت658 ه) **التكملة لكتاب الصلة**، الجزء2، مكتبة التاريخ والحضارة الإسلامية، الخطيب للتسويق والبرامج، الأردن، عمان، النسخة الإلكترونية.

- ابن الأثير (ت630 ه)، **الكامل في التاريخ**، الجـزءان 8 و 9، دار الفكر، بيروت 1978.
- ابن بشكوال (ت578ه)، **كتاب الصلة**، تحقيق السـيد عـزت العطار الحسيني، القاهرة 1994.
- ابن جبير، (ت614ه) **رحلة ابـن جبيـر**، (ط2)، دار مكتبـة الهلال، بيروت1986.
- ابن حمديس (ت527ه)، **ديوان ابن حمديس**، تحقيق إحـسان عباس، دار صادر، بيروت 1960.
- ابن حوقل، (ت بعد 367ه) **صورة الأرض**، دار مكتبة الحياة، بيروت 1979.
- طبعة أخرى: دار الكتاب الإسلامي، القاهرة 1995.
- ابن حيان (ت469 ه)، **المقتبس من أنبـاء أهـل الأنـدلس**، تحقيق عبد الرحمن علي الحجي، دار الثقافة ، بيروت 1983.
- ابن الخطيب، (ت776ه) **أعمال الأعلام**، تحقيق أحمد مختـار عبادي ومحمد إبراهيم الكتاني، الجزء3. دار الكتاب، الدار البيـضاء 1964.
- ابن خلدون، (ت808 ه) **كتاب العبـر**، دار الكتـب العلميـة، الجزء6، بيروت 1992،.
- طبعة أخرى، كتاب العبر، المجلد 4، دار الكتـب العلميـة، بيروت 1979.

- ابن خلدون، **كتاب المقدمة**، تحقيـق عبـد الواحـد وافـي، الجزء2، مطبعة لجنة البيان العربي 1952.

- طبعة أخرى من **كتاب المقدمة**، دار إحياء التراث العربـي، بيروت (د.ت).

- ابن خلكان (681ه)، **وفيات الأعيان**، الأجزاء 2، 3،6 مكتبة التاريخ والحضارة الإسلامية، الخطيب للتسويق والبـرامج، الأردن، عمان، النسخة الإلكترونية.

- ابن ظافر الأزدي (ت613ه) ، **بدائع البدائه**، تحقيـق محمـد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة 1970.

- ابن عذاري، (ت بعد 712 ه) **البيان المغـرب فـي أخبـار الأندلس والمغرب**، تحقيق ليفي بروفنسال وس. كـولان، الجـزء 2، دار الثقافة، بيروت 1980.

- ابن العربي (ت543 ه)، **أحكام القرآن**، تحقيق علي البجاوي، الجزء1. دار الفكر، بيروت ( دون تاريخ ).

- ابن فرحون (ت799 ه)، **الديباج المـذهب**، تحقيـق محمـد الأحمد ابو النور، الجزء2، ط2، دار التراث العربي للطباعة والنشرـ القاهرة 1976.

- ابن القوطية (ت367 ه)، **تاريخ افتتـاح الانـدلس**، تحقيـق وتعليق عبد الله انيس الطباع، بيروت 1958.

- ابن كثير (ت774 ه)، **البداية والنهاية**، الجزء12، مكتبة التاريخ والحضارة الإسلامية، الخطيب للتسويق والبرامج، الأردن، عمان، النسخة الإلكترونية.
- ابن منظور (ت711 ه)، **لسان العرب**، ج11، دار إحياء التراث العربي، بيروت 1999.
- أبو داود، سليمان السجتاني (ت275 ه)، **سنن أبي داود**، الجزء3 إعداد عزت الدعاس، دار الحديث ( ط1)، بيروت 1969
- الإدريسي (ت560ه) ، **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، منشورات المعهد الجامعي الشرقي بنابولي، تحقيق مجموعة من الباحثين، (ط2)، نابولي – روما، (دون تاريخ).
- **كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق** – قسم المغرب العربي، تحقيق محمد حاج صادق طبعة الجزائر 1983 – Opu published.
- **أنس المهج وروض الفرج**، قسم شمال إفريقيا وبلاد السودان، تحقيق الوافي نوحي،، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط 2007.
- الإصطخري (ت القرن 4ه)، **المسالك والممالك**، تحقيق محمد جابر عبد العال الحيني، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، الدار العامة للثقافة، القاهرة 1961.

- الأصفهاني (ت597ه)، **خريدة القصر وجريدة العصر**، قسم شعراء المغرب والأندلس، تحقيق محمد المرزوقي ومحمد العروسي المطوي، الدار التونسية للنشر، تونس 1986.

- البكري (ت487ه)، **المسالك والممالك**، تحقيق أدريان فان ليوفن وأندري فيري، الجزء1، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1992.

- التجاني (ت708 ه)، **رحلة التجاني**، تقديم حسن حسني عبد الوهاب، الدار العربية للكتاب، ليبيا – تونس 1981.

- الحميري (ت723 ه) ، **الروض المعطار في خبر الأقطار**، (ط2) مكتبة لبنان، مطابع هيدبلغ، بيروت 1984.

- الخفاجي (1069ه)، **طراز المجالس**، المطبعة الوهبية، مصر 1284هـ.

-العذري (ت478 ه)، **ترصيع الأخبار وتنويع الآثار**، تحقيق عبد العزيز الأهواني، مدريد 1965.

-عياض، القاضي (ت 544 ه )، **ترتيب المدارك**، تحقيق سعيد أعراب، الجزء 8، طبعة فضالة- المحمدية 1983.

- القزويني (ت682ه)، **آثار البلاد واخبار العباد**، دار صادر، بيروت ( دون تاريخ).

- الكاساني (ت587ه) ، **بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع**، الجزء7، دار الكتب العلمية، بيروت.

- المقدسي (ت حوالي 380ه)، **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، (ط2)، دار صادر، بيروت ( دون تاريخ).

- مالك (ت179 ه)، الإمام مالك بن أنس، **المدونة الكبرى**، دار الكتب العلمية (ط1)، بيروت 1994.

- المراكشي، عبد الواحد (ت647ه)، **المعجب في تلخيص أخبار المغرب**، مكتبة التاريخ والحضارة الإسلامية، الخطيب للتسويق والبرامج، الأردن، عمان، النسخة الإلكترونية.

- المسعودي (ت346ه) ، **مروج الذهب**، الجزء 1، تحقيق محيي الدين عبد الحميد، القاهرة 1965.

- مؤلف مجهول، **نص أندلسي مجهول**، نشره ليفي بروفنسال وغرسية غومز مع ترجمة إسبانية تحت عنوان :

Una cronica de Abd al-Rahman al Nasir، مدريد 1950.

- النويري (ت733 ه)، **نهاية الأرب في فنون الأدب**، تحقيق حسين نصار، ج24، إصدارات المجلس الأعلى للثقافة والهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة 1983.

- الونشريسي (ت914 ه)، **المعيار المعرب، والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب**، تخريج مجموعة من الباحثين، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الأجزاء 2،6،8،10، دار الغرب الإسلامي بيروت 1981.

- ياقوت الحموي ( ت 626 ه)، **معجم البلدان**، 5 أجـزاء، دار الكتاب العربي، بيروت (دون تاريخ).

- اليعقوبي، **كتاب البلدان**، ط2، النجف 1917.

***المراجع والدراسات العربية:***

- باشا، أحمد فؤاد، **التراث العلمي للحضارة الإسلامية ومكانته في تاريخ العلم والحضارة**، دار المعارف، القاهرة 1984.

- التازي، عبد الهادي: **التاريخ الدبلوماسي للمغرب من أقـدم العصور إلى اليوم**، الجزءان 5، و6، مطبعة فضالة المحمدية 1987.

- تركي، عبد المجيد، **قضايا ثقافية من تاريخ الغرب الإسلامي (نصوص ودراسات)**، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1988.

- توبولياك، سليمان محمد، **الأحكام السياسية للأقليات المسلمة في الفقه الإسلامي**، (ط1)، دار النفـائس، عمّـان - دار البيـارق، بيروت 1997.

- الدوري، تقي الدين عارف، "سقوط صقلية في يد النورمـان وانتهاء السيادة العربية"، مجلة آداب المستنصرية، بغداد، عدد 8، سنة 1984.

- الدوري، تقي الدين عارف، " دور صقلية في نقـل التـراث الطبي إلى أوروبا " ، مجلة المؤرخ العربي، العدد 29، سنة 1986.

- تقي الدين عارف الدوري، **صقلية، علاقتها بدول البحر المتوسط الإسلامية من الفتح العربي حتى الغزو النورمندي**، منشورات وزارة الثقافة والإعلام بالعراق دار الرشيد للنشر1980.

- حتّي، فيليب، **تاريخ العرب العام**، ط7، دار إحياء العلوم، بيروت 1986.

- حسن، محمد، **الجغرافية التاريخية لإفريقية من القرن الأول إلى القرن التاسع**، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت 2004.

- حلاق، حسان، **العلاقات الحضارية بين الشرق والغرب في العصور الوسطى: الأندلس، صقلية، الشام**، الدار الجامعية، بيروت 1986.

- الزحيلي، وهبة، **تبصير المسلمين لغيرهم بالإسلام: أحكامه وضوابطه**، منشورات المجمع الملكي لبحوث الحضارة، عمّان 1989.

- سيديو لويس، **تاريخ العرب العام**، ترجمة عادل زعيتر، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة 1969.

- الصيد، رمضان المبروك خليفة، **العلاقات العربية الصقلية خلال القرنين السادس والسابع الهجريين، 12-13 الميلاديين** 484-682هـ/ 1091-1284م، أطروحة لنيل درجة الدكتوراه في التاريخ، العام الجامعي 1999-2000.

- الطيبي، أمين توفيق، **دراسات وبحوث في تاريخ المغرب والأندلس**، الدار العربية للكتاب، ليبيا- تونس 1984.

-عاشور، سعيد عبد الفتاح، **تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، مكتبة الأنجلو مصرية**، (ط6)، القاهرة.

-عباس، إحسان، **العرب في صقلية**، دراسة في التاريخ والأدب، (ط2،) دار الثقافة، بيروت 1975.

-عبد الوهاب، حسن حسني، **ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية**، الجزء 2، مكتبة المنار، تونس 1972.

-عزيز أحمد، **تاريخ صقلية الإسلامية**، ترجمة أمين توفيق الطيبي، الدار العربية للكتاب، ليبيا-تونس 1980.

- فيشر، هربرت، **تاريخ أوروبا في العصور الوسطى**، تقديم محمد شفيق غربال، ترجمة محمد مصطفى زيادة والسيد الباز العريني، الجزء1، دار المعارف، القاهرة( دون تاريخ).

- القادري، إبراهيم بوتشيش، **حلقات مفقودة من تاريخ الحضارة في الغرب الإسلامي**، دار الطليعة، بيروت 2006.

- الكتاني، علي، **الأقليات الإسلامية في العالم اليوم**، مكتبة المنار (ط1) مكة المكرمة 1988.

- الكيالي، عبد الوهاب، **موسوعة السياسة**، (ط1)، الجزء1،المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 1987.

- لوبون، جوستاف، **حضارة العرب**، ترجمة عادل زعيتر، (ط3)، دار إحياء التراث العربي، بيروت 1979.

- لويس، أرشيبالد، **القوى البحرية التجارية في حوض البحر المتوسط** ( 500- 1100م)، ترجمة أحمد محمد عيسى، مراجعة وتقديم محمد شفيق غربال، طبعة مصر ( د.ت ).

- ماجد، عبد المنعم، **العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى**، مكتبة الجامعة العربية، بيروت 1966.

-ماريو، مورينو مارتينيو، **المسلمون في صقلية**، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت 1968.

-ا لمدني، أحمد توفيق، **المسلمون في صقلية وجنوب إيطاليا**، طبعة الجزائر 1365 هـ / 1945.

- مؤنس، حسين، **تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس**، المعهد المصري للدراسات الإسلامية، مدريد 1967.

*المراجع الالكترونية:*

-الجباعي، جاد الكريم، "مسألة الأقليات"، مقال منشور بالرابط الإلكتروني:

http://hem.bredband.net/b153948/stu14.htm

-الزهراني، علي، "**الوجود الإسلامي في صقلية في عهد النورمان بين التسامح والاضطهاد 444-591هـ/1052- 1194م**"، بحث نشر في الموقع الإلكتروني:

http://islamport.com/d/3/amm/1/259/3754.html

-الشريف، محمد بن شاكر، "**وضع الأقليات في الدولة الإسـلامية**"، بحث منشور بتاريخ 2010/6/8، ص4 بالرابط الإلكتروني:
Ar.islamway.com/book/3451

-الماني، موفق محمد، "**الأقليات**"، مقال نشر بتاريخ 30 أيلـول 2006 على الرابط الإلكترونـي لـشبكة النبـأ المعلوماتيـة:
http://www.annabaa.org/nbanews/59/229.htm

-**الموسوعة العربية** : على الرابط الإلكتروني:
http://www.arabency.com/index.php?module=pnEncyclopedia&func=display_term&id=468&m=1

-"**مفهوم الأقلية**"، مجلة الوعي، عدد 225، شوال 1426 هـ، تـشرين الثاني 2005، الحلقة الثانية، على الرابط الإلكتروني:
http://www.alwaie.org/issues/225/article.php?id=262_0_22_0_C

*المراجع والدراسات الأجنبية:*

-Aube , (P), **Roger de Sicile: un normand en méditerranée**, Article publié sur le Web:
http://www.clio.fr/BIBLIOTHEQUE/les_normands_en_mediterranee_du_xie_au_XIIIe siècle. asp.

-Curtis ,(Edmund), **Roger of Sicily and Normans in Lower Italy**, New York and London 1912.

-Daniel, Norman, **The Arabs and Medieval Europe**, London 1973

- Unesco, **Communautés minoritaires Education des adultes et communautés minoritaires**, atelier sur les minorités, organisé lors de la Ve conférence internationale sur l´éducation des adultes (confintea), Communautés minoritaires, Hamburg , Juillet1997, p47, PDF publié sur le Web:
http://www.unesco.org/education/uie/confintea/pdf/Fra_1c.pdf.

- Fernet (Alain ), "**Essai sur la notion de la minorité nationale**", Publications de la faculté de droit et des sciences politiques et sociales d'Amiens, n° 7, PUF, 1977, p. 95-113.
- Goitein, **Medieval Tunisia The Hub of the Mediterranean**, Studis in Islamica History and Institutions, Leiden 1966.
-Guichard, (Pierre), **L'Espagne et La Sicile musulmane au XIe et XIIe siècle**, (2ed), Presse universitaire de Lyon 1991.
-Haskins, (Charles Homer), **The Normans in European History**, New York 1966.
-Smith,(Denis.M), **Medieval Sicily, 800-1713** Chatto and Widus, London 1969.

تم بحمد الله، مع اعتذاري للقارئ الكريم

عن أي هفوة أو زلل،

والكمال لله.

# فهرست الكتاب

## صدر للمؤلف:

- أثر الإقطاع في تاريخ الأندلس السياسي من منتصف القرن الثالث حتى ظهور الخلافة (250هـ 316هـ). طبعة الرباط 1992، دار عكاظ.

-المغرب والأندلس في عصر المرابطين: المجتمع – الذهنيات – الاولياء. بيروت 1993، دار الطليعة (الطبعة الأولى).

-الطبعة الثانية لنفس الكتاب، منشورات الجمعية المغربية للدراسات الأندلسية، مطبعة الخليج العربي، تطوان 2004.

-التاريخ الأندلسي من خلال النصوص (تأليف مشترك)، طبعة الدار البيضاء 1991، شركة النشر والتوزيع، المدارس.

-تاريخ الغرب الإسلامي : قراءات جديدة في بعض قضايا المجتمع و الحضارة. بيروت 1994، دار الطليعة.

-الإسلام السري في المغرب العربي. القاهرة 1995، دار سينا للنشر.

-إسهامات في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي لمدينة مكناس خلال العصر الوسيط،منشورات جامعة مولاي إسماعيل، طبعة فضالة – المحمدية 1997.

-مباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب و الأندلس خلال عصر المرابطين، بيروت 1998، دار الطليعة.
-التواصل الحضاري بين عمان وبلاد المغرب الإسلامي: دراسات في مجال الثقافة والتجارة والمجتمع، منشورات جامعة السلطان قابوس، مسقط 2000.
-مستقبل الكتابة التاريخية في عصر العولمة والأنترنيت، منشورات الزمن، مطبعة النجاح، الدار البيضاء 2001.
-إضاءات حول تراث الغرب الإسلامي وتاريخه الاقتصادي والاجتماعي، دار الطليعة، بيروت 2002.
-بين أخلاقيات العرب وذهنيات الغرب: دراسات في الأنتروبولوجيا الاجتماعية والثقافية، دار رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة 2005.
-حلقات مفقودة من تاريخ الحضارة في الغرب الإسلامي، دار الطليعة، بيروت 2006.
-مقالات في تاريخ الغرب الإسلامي خلال عصري المرابطين والموحدين، مطبعة سجلماسة، مكناس 2007.
-الكتاب المرجع في تاريخ الأمة العربية، (تأليف جماعي)، المجلد الرابع، القسم الأول، منشورات المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، مطبعة جامعة الدول العربية – المعادي، تونس 2008.

-**التصوف السني بالمغرب :نسق نموذجي للوسطية والاعتدال**، ( تأليف مشترك)، منشورات الزمن،سلسلة شرفات 27، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء 2010

-**لحظات تفكير في قضايا عالم مضطرب**، دار رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة 2010

-**المهمّشون في تاريخ الغرب الإسلامي**، إشكالية نظرية وتطبيقية لقراءة التاريخ من الأسفل، دار رؤية القاهرة 2014.

-**خطاب العدالة في كتب الآداب السلطانية**، منشورات المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الدوحة 2014.

-**رسالتان أندلسيتان في الأنواء لعريب بن سعد وابن البنا المراكشي** (تحقيق بالاشتراك مع د. سعيد بنحمادة)، منشورات المجموعة المغاربية للدراسات التاريخية والحضارات المقارنة، كلية الآداب، جامعة مولاي إسماعيل، مكناس، سلسلة دراسات وأبحاث، 36، برانت شوب، مكناس 2015.

**بالإضافة إلى عشرات الأبحاث المنشورة في مجلات محكمة باللغة العربية والفرنسية والأنجليزية.**

# هذا الكتاب

يشكل هذا الكتاب إسهاما في تاريخ الأقليات، من خلال سعيه لرصد أوضاع الأقلية الإسلامية في جزيرة صقلية إبان الحكم النورماني، وجعله في منطقة الضوء بعض القضايا المغمورة كمحاولة اندماجها وتعايشها في مجتمع يختلف عن المجتمع الذي كانت فيه صاحبة السيادة. وبعد مبحث نظري لمفهوم الأقلية فقهيا وسوسيولوجيا، كشفت الدراسة عن وضعية الأقلية الإسلامية اجتماعيا واقتصاديا في ظل الإقطاعية النورمانية، وما ترتب عن تلك الحقبة من تحولات أحدثت هزة في هيكلة وبناء المجتمع الصقلي، وتغيّر في خريطة انتشار هذه الأقلية في المدن والأرياف، ومصادرة أملاكها، وتحوّل مجموعة منها إلى رقيق، فضلا عما تعرضت له من تنصير ومحاولات لطمس الهوية، رغم صورة التسامح والحماية التي كان البلاط الصقلي يسعى إلى تأثيثها. كما عرّج الكتاب على الخدمات الإنتاجية والمعرفية والفنية والتقنية والعسكرية التي ساهمت بها الأقلية الإسلامية في تنمية المجتمع الصقلي، وما طالها مع ذلك من محن واضطهادات أميط اللثام حول آثارها النفسية المتمثلة في انعدام الأمن الروحي، والشعور بالاغتراب والعزلة، والإحباط والقلق، مما ساهم في تركها " دار الكفر"، والهجرة نحو " دار الإسلام".

---

المؤلف

استاذ التاريخ والحضارة بجامعة مولاي إسماعيل بمكناسه اشتغل بالتدريس والتاطير في المغرب وسلطنة عمانه واستاذا زائرا في بعض الجامعات العربية والاجنبية، رئيس وحدة البحث والتكوين في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي ورئيس المجموعة المغاربية للدراسات التاريخية والحضارات المقارنة، عضو في عدة جمعيات تاريخية دولية، عضو فخري لدار نعمان للثقافة بلبنانه خبير ومستشار لدى بعض المجلات والهيئات الثقافية والمشاريع البحثية، ساهم في عدة مؤتمرات وطنية ودولية، وحصل على جوائز علمية عربية واجنبية. صدر له العديد من الكتب والأبحاث المحكمة.